الحرملك

الحر ملك

سماح العيسى

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L.

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: شباط/فبراير 2018 م - 1439 هـ

ردمك 978–614–01–2456–1

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

facebook.com/ASPArabic

twitter.com/ASPArabic

www.aspbooks.com

asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1–961+)
ص.ب: 13–5574 شوران – بيروت 1102–2050 – لبنان
فاكس: 786230 (1–961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1–961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1–961+)

الإهـــدَاء

إلى الضمير المستتر وجوباً...

«هي»...

هذه الحكاية ليست مبنية للمجهول فالفاعل فيها معلوم جداً لدرجة التحفظ على اسمه.

هذه الحكاية لم تكن حكايتنا لو تعلق الأمر بالفعل؛ لكنها حكايتنا – جداً – لأن الأمر كله متعلق بردّ الفعل.. فحسب.

لا أحد يختار لنا ردود أفعالنا، لا أحد يفصلها لنا لنرتديها كلما استدعت الحاجة.

ردود أفعالنا الوجه الحقيقي الذي نخبّئه تحت رداء الفضيلة والمثاليات الأنيقة.

ردة الفعل قد تكون أحياناً أكثر قيمة وأعظم شأناً من الفعل نفسه.

هي نحن عراةٌ أمام الحياة بكامل قبحنا أو جمالنا دون أن نداري بثور بشرتنا؛ دون تصنُّع؛ دون أدوات تجميل وإكسسوارات.

نحن كما نحن تماماً بكل فجاجة.

الزمان:

«ما بين الخريف والشتاء هناك فصل أسميه فصل البكاء».

وفق تقويم الانحدار.. ما بين السقوط الأخير والموت المستعر..

قبل أن يرن منبه الأرض بربع ساعة.. معلناً عصراً جديداً

وقبل ميعاد الحسم وساعات الصفر..

.....

المكان:

وفق جغرافية الظلم ما من رقعة على خارطة
الأكوان لم تضربها كوارث القهر..
لكن الناجين غالباً يتكتّمون على الوجع ويكتفون بأنّة مخنوقة..
هناك حيث تغفو المدينة وقد أدارت ظهرها للبحر بعد أن عرفته أكثر أماناً ممن لم تأمن مكرهم..
لم تكن وادعة على كتف البحر كما يُروى في قصص العشاق..
بل كانت مذعورة تزحف نحوه هاربة..
تُحاك قصص الحب فيها وتُخبّأ تحت سابع أرض.. فالحب مذعور أيضاً..
تخطف غيلانُها قرابينَها من غرف النوم، من فسحات المدارس، من مدرجات الجامعات.. من أحضان الأمهات..
تُمَد الأيادي الأخطبوطية لتسرق الفرح من جوف أحدهم..
فتغتصب السعادة باسم السلطة..
والغيلان في مدننا لا تزال تتكاثر وتكبر..
ونحن لا نزال مذعورين..
.....

الصيحة الأولى..

– منى –

الضبـاب يتكاثـف، ترتفـع حلقـات الدخـان، تندمـج ثم تعلو لتتجمـع فـي السـقف. تتابـع المشـهد من هنـاك وتضحك بصوتٍ أسـمعه جيـداً.. أسـمعه وحـدي.. فأقرر أنني لم أمـت بعد، أراقب أنفاسي.. فأتيقن من ذلك.

الغناء يختلط بأصوات الراقصين، يضربون كؤوسهم بالهواء. يحاولون الوقوف.. يتهادون.. يتعكّزون على الكراسـي الخاوية أو على كتف أحد الجالسين، ثم يعودون للتمايل أو الدوران.

أراقبهم، تماماً كما تفعل حلقات الدخان المكدسة في السقف، الفرق بيننا أنها تضحك..

يجتمعـون فـي وسـط القاعة حينـاً يرقصون «الدبكـة» بطريقة عشوائية، غوغاؤهم تزداد بينما يتفرقون في أرجاء الصالة من جديد. يقـف أحدهـم فوق الطاولة ملوّحاً بمسدسـه في الهـواء بينما تقف زوجته على الكرسي، تتشابك أيديهما ويسقط المسدس أرضاً!

تقـف «كونـة» – أمـي – بالقرب من العروسـين تطلق زغرودةً طويلـةً تهـزّ كتفيهـا في نهايتها، ثم تميل نحوهما والكأس لا تفارق يدهـا. تخفـض رأسـها إلـى الخلـف تدريجياً حتى تصير بمسـتوى رأسـيهما، يلثمانهـا كلٌّ مـن خـد ثم ترتفع شـيئاً فشـيئاً. تكاد تهوي

لكنهما معاً يسندانها بينما ثلاثتهم يقهقهون.

تجلس سلام إلى جانبي، بيننا كرسيان شاغران كانت أمي تشغل أحدهما قبل أن تأخذها الثمالة وتغرق في الرقص.

تضم سلام طفلها إلى صدرها الذي اختفى بياضه تحت شال أسود. أخمّن أنها ألقمته ثديها بينما ألقمت قلبها للأسى يمصُّ شبابها بغير شبع.

أراقب رموشها التي تفضحها دائماً. ملامحها المتأهبة للنحيب في أيّ وقت. الكحل يرسم خطاً من العتم طويلاً على وجنتيها تحاول أن تقطعه برؤوس أناملها بين حين وآخر. تنتبه لي وأنا غارقة بإحصاء خيباتها، تبتسم مثل جثة، لا أستطيع أن أبادلها البسمة بمثلها، فأشيح بوجهي عنها.

تقع نظراتي على وجه أبي المختبئ خلف موجة سُكرٍ عاتية. يرفع الكأس في وجهي عندما تلتقي نظراتنا، ويضحك. أراقب الشيب الذي التهم رأسه؛ أتمنى لو أطّلع على قلبه لأتيقّن إن كان قد بقي فيه رمقٌ من حياة. يرخي مرفقيه على الطاولة يوزّع ابتساماته في أرجاء القاعة ولا أحد يكترث لها.

بينما تبوح عيناه بعجزٍ حجّم حتى جسدَه، فنال منه الهزال حتى كاد ينهيه. وكأنما جسده انعكاس روحه!

يعلو صوت تشجيع في وسط القاعة، أُرسل نظراتي بصعوبةٍ نحو مصدره فألمح وجه سلمى. تتكاثر الرؤوس المتمايلة في مرمى بصري فتحجب الرؤية، ثم لا تلبث أن تنكشف مجدداً. ألمح مرهف وقد طوّق بذراعيه خصر سلمى، والجميع من حولهما

يصفقون ويصفرون. أربّتُ على كتف الدهشة ثم أشيح بنظري نحو الفراغ.

أراه هنـاك.. ثـم يختفـي، يلتهـم الدّخان وجهه. أراقب سـاعة يدي، أسأل نفسي هل عبر الحدود؟

وأسـهو عـن كل مـا حولـي لأغـرق في ذكـره.. لا أكاد أجمع ملامح وجهه، حتى يوقظني صخب المجتمعين بالقرب مني.

أرفـع رأسـي قليـلاً لأتمكـن من رؤيتهمـا. ها همـا يتعانقان، يرقصان بحالة أقرب للهذيان. سلمى تُقلِّد حركة أمي، تميل برأسها صوب مرهف الذي يلتقط شعرها بأصابعه ليرفعها بلؤم ويضحك.

لا تكـف سـلمى عـن الرقـص وتشـاركه ضحكتـه المجنونة. يسـحب مسدسـه عن خصره بحركة راقصة يقلّبه بين كفيه ثم يعلقه بإصبـع واحـد ويبـدأ بالرقـص حولـي بينمـا يلفّ المسـدس حول إصبعـه. الجميـع يصفق، وحدي أنا أتابع المشـهد بصمت وحياد، كأني لستُ معنيّةً بهذا العبث.

الجـو يعبـق بالمجـون حلقـات الدخان تضحك حتى يُغشـى عليها. مرهف يرفع فوهة مسدسـه في وجهي ثم لا يلبث أن يطلق رصاصتـه نحـو السـقف تتفـرق سـحب الدخان مذعـورة. يتقلص الصخب لكنه يستمر.

يعاود مرهف الكرة ينهال بسيل من الرصاص في صدر الهواء الأعزل ونحو السقف.

يركـض الجميـع.. الضحك يسـتحيل صراخـاً. رائحة البارود تطغى على رائحة الخمر.

صـوت الرصـاص يـرن في أذني، ثم أُحـسُّ بحرارته. الحرارة تتلاشى فجأة.. الصقيع يحلُّ بأطرافي.

وجه مُرهف يرتجُّ.. ثمّ يخبو.. لكن الصخب يعود.

رائحة البارود تخترق أنفي، لكنّ الصخب مستمرٌ..

أركض نحو الفراغ، أجمع ملامحَ ريّان على عجل..

ثمّ أحكيهِ لنفسي..

– ليلى –

– 1/ آذار/ 1982

– الساعة السابعة و15 دقيقة مساءً

– المشفى الوطني في مدينة اللاذقية – قسم المخاض.

.....

كان وصولنا إلى هذه المدينة بحدّ ذاته أشبه بمعجزة..

لهثنا نحو البحر هرباً من الموت الذي عاث في حماة جنوناً، بعد أيام طوال من التقوقع خلف جدران منزلنا،

قضتها أمي وهي تصلي، فلا تكاد ترتفع من ركوع حتى تتبعه بسجود ولا تكاد تنهي صلاتها بتسليم حتى تفتتحها من جديد بتكبير. رغم بطنها المنتفخ كانت تقاوم ألم انحنائها وتصلي بدمعها قبل جسدها، بروحها قبل جوارحها.

صوت الرصاص يقاطع ابتهالاتها بينما يتناهى إليها صوت أبي من المطبخ، مطالباً إياها أن تنضم إليه هو وليث مكرراً تنبيهاته لها مراراً بإخفاء سجادة صلاتها وأي غطاء رأس تملكه تحت صناديق الكراكيب المكدسة في «المنور».. كانت تستجيب متأخرة بعض الشيء فتصل إلى المطبخ بأنفاس متقطعة.

كان المطبخ ملجأهم حينما يعصف الجنون في المدينة فلا

يصير من الممكن التمييز بين أصوات الرصاص وانفجارات القنابل تحت مطر من اللهب تقذفه الطائرات فوق أسطح المنازل.

المنازل المنكمشة على ذعرها؛ ينهار جدار من هنا ويتهاوى سقف من هناك قد يدفن تحته عائلة بأسرها؛ دون أن يظل منهم من يُنبئ بما حدث. وسنعلم فيما بعد إن إحدى تلك العوائل كانت عائلة جدي لأبي.

في منزلنا كانوا ثلاثتهم؛ أبي؛ أمي وليث يسكنهم الذعر تماماً حتى كأنه التهم أصواتهم على أرض المطبخ تحت عضد الحائط. المكان الأكثر أماناً في المنزل كله كما حدس أبي.

تكوّر أمي يديها حولي بينما أنا أتابع حلماً هادئاً في رحمها بعيداً عن كل ذلك الصخب والرعب.

يتسمّر ليث في حضن أبي ويستمر الموت في لهوه حولنا!

أخيراً.. بعد أيام كان الرعب فيها كالفَراش المبثوث في سماء المدينة، وصارت المنازل بعدها كالعهن المنفوش. أخيراً هدأ الوضع نوعاً ما. صمتٌ خبيثٌ فرد أجنحته في حماه، استغله أبي للفرار نحو سماء أقلّ صخباً ومدينة أزقتها لم تستحل بعد مقابر جماعية. كانت بطاقة هوية أمي هي تذكرتنا للهرب، عائلتها المنتمية للاذقية وكنيتها العالقة في نهاية الاسم كلمة سر فتحت أبواب مدينة البحر في وجهنا كذلك ذهبها الذي كان يتناقص قطعةً قطعةً كلما عبرنا حاجز تفتيش إلى أن تلاشى تماماً في لحظة الوصول.

ما إن وصلنا اللاذقية حتى استبدّ الألم بأمي، ذاك الألم الذي ظلت تقاومه وتبتلعه على طول المسافة بين حماه واللاذقية مروراً

بحَردة فجَلمة حتى صلنفة التي بلغوها بشقّ الأنفس. كانت الطريق بين صلنفة والحفة هادئةً وفاتنة؛ كأنما الموت الذي تركوه خلفهم في حماه كان قيامة كوكبٍ آخر.

لـم تكـد تلـك الحافلـة أن تتجـاوز مدخل اللاذقيـة حتى كان الأنين قد تجاوز حنجرة أمي.

– عماد.. لن أحتمل أكثر.

مالت بكتفها – منهارةً – نحو أبـي الذي ما زال مأخوذاً بحزنه على مدينته الخارج منها دون أن يتبين خبراً واحداً عن ذويه الذين قـد يكـون طوفـان المـوت قد جرفهم. لم يفق من شـروده إلا على صوت أمي وقد استحال صراخاً ممزوجاً بألمٍ أكبر من أن يُحتَمل..

– عمااااد... رح ولِّد...

أمام غرفة المخاض يخطو أبـي مضطرباً متوتراً يحصي بلاط الممر الضيق الواصل إلى غرفة الممرضات؛ جيئةً وذهاباً.

يقف لحظةً قرب باب غرفة المخاض حيث أمي تعض أصابع الألم لتضعني في حجر الحياة، ينصت لصراخها الذي يكاد يهتك فؤاده.

خالتي تجلس على كرسـي الانتظار المقابل للغرفة كانت قد جاءت لاهثةً بعد أن هاتفها أبـي فور وصولنا المشفى.

كانـت تقـف بصعوبة وتعود لتجلـس محاولةً أن تجد وضعية جلوس مريحة لجسدها المنتفخ. جلسة تلائم فقرات ظهرها الذي يرزح تحت حمل جنين يماطل في قدومه إلى هذه الدنيا.

أخـي ليـث فـي الجهة الأخرى من الممر؛ طفل بعمر الخمس

سنوات يختبر الهدوء الذي كاد ينسى معناه، يختبره في ممر طويل يلفّه هدوء مساء غريب.

عاين ملامح المكان الجديد من حوله ثم راح يلعب الطميمة مع ظلّه.

كان المكان غير ملائمٍ للقاء بين ناجين من الموت أو للحديث عن قيامة ما أحاقت بمدينة كانت تبدو في تلك اللحظة بعيدةً؛ بعيدةً جداً. ولأن الكلام بدا عسيراً جداً فكان الصمت أكثر يُسراً وبلاغةً.

إلى أن قطعت صرخة ولوجي الحياة صمتهما الموتور..

وُلدت «ليلى» التي حلم أبـي بمجيئها منذ زمن حتى أنه اختار اسمي قبل ميلادي بأعوام..

سبقت صرختي حضورك إلى مسرح الحياة..

سبقتك بيومين وساعة وبضعة أوجاع وأعمار من الحزن..

– منى –

كان اليـوم كئيبـاً كأي يـوم عطلةٍ يمضغ روحي ببطء. أتشـبّث بضحكة مجد لأهرب من عفن البيت وجوّه الموبوء.

كالعـادة سـلام ممـدّدة فـي الصالـة غارقة في اللاشـيء وأمي تجلس قبالتها «تقرقع المتة» بينما تنفث من سـيجارتها سـحابة من الدخان تخفي ملامحها الجافة خلفها.

أجلـس فـي غرفتنـا؛ فـي الركـن المخصّـص لوحدتي وَسـط حضورهم. أراقب المشهد في الصالة عبر الباب المفتوح.

قبالتـي تمامـاً وجـه أبـي الـذي بدأ يغزوه الهَـرم، أراقبه؛ أركّز عينـي علـى تفاصيـل وجهه الوديعة ثـم أنقل بصري إلى أمي. يا الله ما أبعدهما؛ نقيضان.. نقيضان تماماً.

أنبش وجه أبـي بعينيّ مجدّداً؛ أبحث عن مسحة الجمال التي نجت من براثن الزمن في وجهه.

أعيد ترتيب التواريخ في ملامحه؛ أتخيله شـاباً؛ فارع القامة، بعينيـن برّاقتيـن ورموش مترّاصة ومبسـم بهيّ. يمشـي في شـوارع موسكو يخطف أنظار حسناواتها.

أتخيّله متأبطاً ذراع كرسـتينا بينما يذرعان الشـوارع هناك دون تعب أو سأم.

كيف حال قلبك الآن يا أبـي؟!

أما زال ينبض بكرستينا؟!

كيف كبّلوك بكَونَة وأطفأوا ضحكتك؟! يا لِضعفكَ!!

أكزُّ على أسناني غيظاً.. لِمَ عساك خُلِقتَ بهذا الضعف؟!!

قبالتي يجلس؛ يضم شـفتيه الداكنتين. يمصُّ رشـفةً أخيرة من كأس المتـة. يضعهـا على الصينية ويتابع صمتاً طويلاً يمارسـه منذ عمر. ربما منذ نزعوا ذراع كرستينا من ذراعه ليزرعوا مكانها ذراع كونة.

أراقبـه بدمعـة حارقـة تنبع فجأة بعينيّ.. كيف حال قلبكَ الآن يا أبـي؟!

أتذكـر تفاصيـل صغيـرة خبّأتُها في ذاكرتـي، أحاول أن أكمل القصـة التـي لم تكن يوماً سـراً. لكنـي أعرف من تفاصيلها المخبّأة ما لا يعرفه سواي؛ عرفتُها صدفة ودفنتُها في صدري إلى الأبد.

يومها كنتُ أفتش في أغراض أبـي المكوّمة في كرتونة قديمة مدفونـة وسـط كراكيـب كثيـرة يعلوها غبار عمر. فوق السـقيفة في منزل جدّي؛ وقعت يدي على ألبوم صور قديم لأبـي.

صورته في الثانوية يتوسّط شلة من أصدقائه، كان يافعاً بشارب نابت لتوه؛ يحمل حلماً في عينيه وعلى وجهه ابتسامة خلاّبة.

صورةٌ أخرى وسط الحقل وحيداً ثم صورٌ لوجوه أجهلها..

صـورة لأبـي يقف حاملاً حقيبة سـفر في يـده اليمنى وجواز سـفره بيـده اليسـرى. يرتـدي بنطالاً يضيق عند خصـره وفخذيه ثم يتسـع فجأةً عند سـاقيه. بقميصٍ منقّطٍ بياقة كبيرة ومرتفعة. شـعره

يبدو رغم انطفاء ألوان الصورة لامعاً؛ أنيقاً.

لفتتني الصورة، أخرجتُها يومها من الألبوم لأتحرّى إذا ما كُتِب تاريخٌ ما على ظهرها. لم أجد تاريخاً لكني قرأت «إلى روسيا..».

– كان الحزن مُشِعاً في عيني والدي.. «إلى روسيا»...

تابعتُ تقليب الأشياء بفضولٍ ينهشني..

قلادةٌ يأكلها الصدأ.. وحرفان ينبضان في وسطها «R–K»

كنتُ أعرف أنهما اختزالٌ لحزنٍ طويلٍ «راغب وكرستينا»..

كيف حال قلبكَ الآن يا أبي؟!!

– ليلى –

– كنتَ قدري؛ شقيق روحي.. رفيق الطفولة والمراهقة.

كنتَ معي في كل تفاصيل الحياة وكل فصول الطفولة والصبا. تشاركنا معاً أفراحاً كثيرة وتقاسمنا حزنك الأول..

أذكـر ذلـك اليوم جيداً أسـتحضره فـي مخيلتي بكل ملامحه. بدءاً من صوت الشـيخ عبد الباسـط وهو يتلو سـورة الغاشية ونبرته تخترق هشاشة فؤادي، فأذوب خوفاً وحزناً رغم عدم فهمي لكثير من الكلمات..

مـروراً برائحـة القهـوة العربيـة التي كانت تُسـكب في فناجين بيضاء زُركشـت نهاياتها بخطوط ذهبية تختفي كل حين بين شـفاه الشاربين.

انتهـاءً بضـوء غرفتـك الـذي لـم تقبـل أن تشـرعه طيلـة ليلـة العزاء الأولى رغم توسلاتنا المستمرة أنا وأخي ليث والتي قابلتها بالرفض. أذكر كيف أنك تجمدت في زاوية الغرفة دون حراك..

كنت أسمع نحيبك يومها لكنك كنتَ تنهرني كلما سألتك ألا تبكي؛ كنت ترتشف دمعك وتكتم أناتك وتجيبني بغضبك الذي ما تغيرت ملامحه يوماً:

– «أنا لا أبكي».

ظللـت حاضنـاً ركبتيك إلى صدرك ومتكئاً على الحائط طيلة الليـل. غفـوتُ وأنـا أراقبـك رغم عتم الغرفة. كنـت طفلاً قد خلع ثـوب طفولتـه باكـراً، منذ أول لحظة يتم قـررتَ أن تكبر. أن تكون رجلاً في وجه الحزن. خبأتَ دمعتَك تحت سقف الظلمة ولم تقبل مواساةً من أحد.

– قبل يومين من صاعقة اليتم المفاجئة كنتَ مثلي طفلاً في الثانية عشرة من «عمرنا»..

كنـا نلعـب الكرة معاً في إحدى الحدائق وأبوك يراقبك بأعين الحنـان بينمـا أنـت تركـض أمامه؛ طفله الوحيد الـذي منّ به القدر عليه. فرحمُ خالتي ما اتّسعت إلا لك وما خُلقت إلا لتحملك..

في لحظة ولادتك سلبتها أي أمل بأن تحمل طفلاً غيرك بين جنباتها، جئتَ أنت واستؤصلت منها أية أمومة لغيرك؛ بعدكَ..

كنتَ أنتَ ثمرة رحمها المبتورة؛ الأولى والوحيدة..

وجاء اليتم لتكبر أنت بين ليلة وضحاها؛ ركضت فوق الزمن لتسبق عمرك بكثير. لتحمل عبئاً يكبرك بسنين..

وصـرت تكبـر بسـرعة وأنـا أعيـش عمـري بتأنٍّ. طفلـةٌ كنت وصرتَ أنت رجل أحلامي..

خضتَ معارك الحياة مبكراً فلبست زي الفروسية بناظري..

اعتزلتَ الدراسة، ونزلتَ مضمار السباق خلف لقمة العيش، وصرت تزداد وسامة ورجولة، وأزداد أنا افتتاناً بك.

شرّعتُ بوابات القلب لريح عشقك تعصف به وشيدت ممالك الوله في روحي. نصّبتك على عرش الفؤاد وسلمتك مقاليد الحب.

– منى –

كان الوقـت ظهيـرة؛ الشـمس تصلـي وجـه الأرض بلا رحمة بينما الباب يُقرع بقبضةٍ واهنة.. كانت سلام تكفكف دمعها؛ تداري عينها المُزرقة وتجر جسـدها الذي يضج بالوجع بعد ما لاقته من ضربٍ في بيت زوجها.

لـم يكـن مـن المتوقع أن تلقى الصدر الحنون هنا إنما اكتمالاً لمشهد بدأه زوجها وأنهته أمي..

فبعد ساعة من وصولها، خرجت سلام من بيتنا وقد أضيفت إلى اسمها بضعة أحرفٍ لتصير بكامل أنوثتها «استسلام».

يا الله أنا أيقن أن دمعها لن يجف بعد اليوم أبداً، ستظلُّ باكية برأسٍ منحنٍ حتى وهي تحاول أن تشرّع شفتيها عن ضحكة كاذبة..

كانـت متكـوّرة علـى نفسـها علـى الأرض، وكأنهـا تتخـذ وضعيـة دفاعيـة بعدمـا تلقتها أمي بوابل مـن صراخ. قرفصت أمي فوق رأسـها، وراحت تنادينا بالاسـم؛ بنتاً بنتاً حتى اكتمل تعدادنا حولها، خمس صبايا سادستنا سلام التي ستكون موضوعاً رئيسياً لهذه المحاضرة..

راحت أمي تتفحص سـلام بعينين تنشـران غضبهما في أرجاء المـكان. تفـرك ركبتيهـا براحتي يديها ثم ترفع حاجباً وترخي آخر،

كعادتها تحرص أن تمنح الغضب ملامحه دون أن تبخسه شيئاً من حقّه، عضت شفتها السفلى بطريقة مفتعلة، ثم بدأت المحاضرة. كانت فرصة عظيمة لها كي تضعنا منذ الآن على الصراط المستقيم، وبما أن سلام أول من خرج من قمقم الأسرة لترجع إليه بهذه الحالة. فقد بذلت أمي قصارى جهدها لتجعل سلام عبرةً لنا.. ليكون تدجينها على مرأى منا نحن الإناث الباقيات هنا بمثابة تمهيد لتدجيننا المقبل؛ يوماً ما..

– «كل الرجال يعيشون مجونهم لكنهم يعودون آخر النهار إلى بيوتهم مهما طال بهم الوقت ويجب أن تكوني حينها كأي زوجة صالحة تنتظرين زوجك في ركنك.. ها هل فهمتِ.. في ركنك..».

كان أبي يراقب المشهد عن بعد.. في نهاية الصالة يجلس محتوياً ذقنه بين أصابعه هازاً رأسه بعد كل جملة تنطقها أمي.. وكأنما يؤكد عليها في الوقت الذي لم يكن هناك من يلتفت إليه أو يأبه بتعبيراته من بين المجتمعات تلك اللحظة؛ عداي...

أتفحّص وجه أمي كأني أراها للمرة الأولى.. أراقب القسوة التي تنضح منه دائماً. التفاصيل الصغيرة، القسوة الحاضرة في التفاصيل الصغيرة. تكشيرتها المستدامة؛ الخطوط التي تجتمع في أعلى حاجبيها مشكلةً عقدة يصعب حلها.

الخطوط الصغيرة والكثيرة حول عينيها على أطراف جفنيها. شفتاها المزمومتان دائماً؛ الخطوط الصغيرة هنا أيضاً تتقارب كلما دنت من شفتيها.

شـفتاها المتآكلتان.. الباهتتان لا تعرفان الاسـترخاء؛ لا تتقنان الابتسام.

أراهـا كلمـا حاولت أن تبتسـم تبذل جهـداً مضنياً. هذا الوجه الذي اعتاد التجهم انكمش على نفسـه، صار من المتعب أن تفك كل هذه الخيوط أو أن تحل تلك العقد. صار مضنياً أن تفرض نوعاً من الفرح أو اللاشيء على ملامحها. القسوة تطفو فوق كلّ شيء.

فـوق الجبهـة والحاجبين؛ فوق العينين المتعكرتين اللتين كاد لونهمـا أن يختفـي. فـوق الوجنتين المنتفختين؛ فوق الذقن القصير والمكتنز.

القسوة في كل نقطة من مسام وجهها أوجدت لنفسها موطناً.. ولـم تتعـب أمـي يوماً من تكرار هذا البؤس في ملامحها وإسـقاطه علينا..

– ليلى –

يتسـلل من مسـامنا.. ذلك الشـيء الغض الصغير.. يغزونا من أضعف المعالم فينا ليبدأ تضخمه في دواخلنا.. نستنشـقه بعفويتنا المفرطة.. بلاإرادية الأنفاس. نفتح له الأهداب والأبواب.. ويتغلغل فينا أكثر فأكثر في انحناءات الروح وتجاويف القلب.. نسـقط من وعينـا إلـى لاوعيـه.. نرتفع من أرضنا إلى فضائه.. وتشـعل جذوة الأشواق في قلوبنا لتعلننا عشاقا..

كنـت عائـدة مـن كليتي حين صادفتك أمـام مدخل عمارتنا.. هـوى قلبـي منـي ككل مـرة أراك فيها، التقطه عقلي في آخر لحظة قبل أن يتركني ويقفز إليك بشـقاوة العشـق ويطبع حباً على جبينك ويتلاشى..

– «أهلاً.. أهلاً» سبق صوتي خطواتي إليك..

– «أريـدك في أمـر مهم». جاءت إجابتك، متجاهلاً ترحيبـي وابتسامتي المسرفة..

مشـيت معي أمام المنزل لتحدثني بما لا رغبة لك أن تسـمعه جدران منزلي قبل سكانه..

كان الشـفق قد بدأ يلوِّن ملامح السـماء والشـمس تنتحب في آخر الأفق راحلة..

في ذلك الزقاق الضيق الذي لا يتسع إلا لجسدين وحب.. مشيت إلى جانبك أرفع بصري لأتمعن تفاصيل وجهك الشاهق.. أتصبّب عشقاً.. أفرك كفيّ بشدة قبل أن يفضحا توتري، أسحب منديلا من حقيبتي أحاول أن أجفف فائض الحب الذي ينز من مسامي وأنت على يمين القلب تسير..

قلت الكثير لكني كنت منشغلة عن أحرفك في محاولاتي الجاهدة بأن أفرض حظر تجول على جماهير الشوق الغفيرة.. واللهفة الفاضحة.. وهذا العشق المندس في جوفي والذي يهدد استقرار حضوري في حضرتك..

لكن حواسي استنفرت معلنة حالة الطوارئ القصوى عندما نبست شفتاك قائلة: «أريد أن أخطبها.. لكن أردت أن أعرف رأيك فيها قبل أي أحد».

هبط الظلام فجأة عليّ.. كنت وحدك واقفاً في بقعة النور الوحيدة المتبقية على وجه البسيطة... وأنا أغوص في الحلكة وحدي..

تجاهلت تعابير الذهول المصبوبة في تفاصيل وجهي وأردفت «أنت صديقتي الأولى.. أنتِ أقرب مني لنفسي.. شريكة لحظات الولادة وساعات السعادة.. لم أخبر أحداً قبلك بالأمر.. أردت رأيك قبل الجميع أنت أقرب الأشخاص إلى كلينا.. أنا وهي.. فأردتك أن تكشفي لي الغطاء عن مشاعرها.. وتسأليها إن كانت ترضى بي شريكاً لبقية حياتها».

أنا في الصمت أذوب.. أترنح مصدومة.. ينكمش فؤادي على

جرحـه.. أحـاول أن أهدئ روعه.. قليلاً من الجلد يا قلبـي.. قليلاً من الوقت فقط ثم سـنبكي كلانا على انفراد.. سـأضمك يا قلبـي ونبكي معاً بانكسار وهدوء.. ابتلع ضوضاءك الآن فحسب.

«حسناً.. طبعاً.. لكن مَن هي؟!».

كنت أقذف أحرفي بصعوبة واضحة.. لمعت عيناك بضحكة.. وانفـرج ثغـرك عـن ابتسـامة ملجومـة.. لكـن ابتسـامتك صهـرت مكعبات الثلج التي كدسـتها فوق فؤادي لتنحسـر دماؤه النازفة من هول الصدمة.. وأفرجت أخيراً عن دمعة تحتضر في طرف روحي.. على أعتاب جفني.. ركضت على خدي بلا وعي مني أو أدنى قرار..

* «خبئي الدمع للعيد فلن نبكي سوى من فرح» *

قلتها ثم اقتربت مني حتى تغلغلت رائحة عطرك «الهوغو» في صدري وعاد قلبـي يقفز في مكانه بشغب..

«من تراها تكون إلا «ليلى».

من تكون غيرك أنت يا مجنونة!».

.....

– منى –

– سلام حامل...

كان الخبر ينتشـر في أرجاء البيت ليعمه فيخرج إلى الحارة.. بأقـدام حافيـة يـدق أبواب الجارات باباً باباً.. ليهزهن من أكتافهن ملقياً نفسـه على أسـماعهن.. «هاتي البشـارة.. سلام حامل» تصيح أمي بصوتها الذي يملك مكبرات صوت طبيعية غير قابلة لخفض الصوت أبداً..

توشوش كل جارة في أذن الأخرى «يا علي!!.. طوشتنا تقول ما حدا إلا سلام حبل!!».

ثـم تتبـدل ملامحهـن بقدرة قادر لتتسـع ابتسـامتهن من الأذن لـلأذن وتنطلـق الزغاريـد مـن أفواههـن معاً فـي ذات اللحظة مثل مكنات تم توقيتها بمنتهى الدقة!

سلام حامل...

الجميع فرح هنا بالخبر ومن لم يستشعر الفرح اصطنعه..

وحدها سلام كانت تتمدد في الغرفة مصطنعة الغفو وسط كل الضجيج الذي يشغل البيت والحارة...

أهدابها ندية.. سلام ذات الأهداب الندية دائماً وأبداً

سلام التي دخلت بيتنا منذ أشهر باكية وخرجته منتحبة.. منذ

ذلك الحين تحولت إلى سلام ذات الأهداب الندية..

كانت كثيراً ما ترتدي بلايزا بأكمام طويلة وياقات مرتفعة حتى ولـو تصببـت عرقـاً تحـت وزرها وكنـت دائماً أنقـب خلف طيات الملابس عما تخفيه.. عن كدمة هنا وجرح هناك..

خاطـت فمهـا بإبـر النصائـح وابتلعـت شـكواها.. وصاحبت المطر حتى بدت دائماً مبللة وشاحبة..

اليـوم كانـت تتمـدد فـي الغرفة واضعة راحـة يدها على بطنها تتحسس الجنين الذي نبت فجأة في أحشائها ليثبتها أرضاً فلا تفكر حتى بالخطو خارج الزنزانة...

اقتربت منها وهمست بأذنها «وما ردة فعل خالد؟».

ارتعشـت ثـم حاولت أن تفتح عينيهـا المثقلتين.. فتحت عيناً واحدة وأبقت جفنها الثاني منسدلاً.. وراحت ترمقني بطرف عينها المفتوحة.. «خالد نايم.. لسّى ما عرف!».

تمتمـت الجملـة بصوت متعب وخفيض.. ثم أغمضت عينها مجدداً..

لأفهم عدم رغبتها بالكلام..

لا بد أن يكون خالد نائماً.. فالمنزل لا يعدو كونه غرفة مبيت بالنسبة إليه.. مبيت نهاري.. فالخفافيش لا تنشط إلا ليلاً..

فـي بدايـة زواجهمـا كان يلقنها حكايات عن مهـام مخابراتية تـوكل إليـه ليـلاً.. ليراقـب حيـاً مـا أو ينقض على ثلـة مخربين في مكان ما..

كانـت حيلـه تنطلـي عليها غالباً.. لكن بعد فترة وجيزة علمت

بالصدفة أن زوجها قد أعفي من وظيفته بالأمن لعدم التزامه بمهامه أو دوامه.. وطبعاً سلام كانت تملك من الأدلة ما يكفي ليثبت ويؤكد ما سمعته. بدءاً من اقتصار دوام خالد على المناوبات الليلية وانتهاء بانقطاع راتبه لمدة طويلة مخترعاً حججاً لا نهاية لها.

متخذاً ما تبقى من أساور في جعبة سلام كمصدر للمال.

ظل خالد مصراً على كذباته متكلاً على جهل سلام.. لكن الحقيقة كانت أنه هو يجهل تماماً ما تعرفه سلام..

.....

عاد مجد يومها من جولته اليومية والتي لا يعلم أحد منا جغرافيتها.. لكننا كنا دائماً مطمئنين بأنه كالقطة التي يرشدها قلبها وتتواطأ حواسها كاملة مع حدسها لتصل بها إلى مأواها الذي يقدم لها الغذاء والماء وحيزاً كافياً لتمددها..

وهكذا كان مجد قط البيت التي يلعق طعامه بهدوء وصمت ويتمدد في الزاوية الضيقة من غرفتنا.. الزاوية الأكثر حراً في الصيف والأشد قراً في الشتاء.. وكأننا كنا جميعاً نستغل صمته المستدام لنسلبه حقوقه مستمتعين بضعفه...

كل منا طاغية على مقاسه.. كل منا يحمل من السادية والديكتاتورية ما لن يظهر إلا أمام أشخاص مسلوبي الصوت وعديمي الحيلة... حينها فقط نمارس طغياناً بعادية مبالغ فيها.

يخرج مجد عصر كل يوم بعد أن يكون قد شاركنا معركتنا فوق مائدة الغداء، يخرج باحثاً ربما عن فضاء يحتويه..

بماذا يفكر.. وكيف لا يزال بعد تسعة عشر عاماً.. لا يزال

يطيق هذا العالم الجائر!

يحمـل إعاقتـه التي تكافل الكون بكل نواميسـه ليمنحه إياها. يحملها بذراع مشدودة إلى صدره ويد متشنجة عند رسغها، ورأس يميل بغير إرادة ذات اليمين وذات الشمال كأنما عنقه مثقل به.

يحاول أن يمسح اللعاب الذي قد يسيل من حين لآخر بطرف كمه.. ويمشـي بقدمين تهويان على الأرض وتتحسسـان موطئهما بطريقة طفولية.

يقضي سـاعة وأحياناً سـاعتين ليرجع والليل يبسـط كفه على وجـه السـماء.. أحيانـاً يعـود حاملاً كيسـاً امتلأ بالحلـوى والعلكة والبسكويت..

وأحيانـاً أخـرى قد يحمـل في جيبه قطعة نقدية غالباً ما تكون من فئة الـ25 ليرة.

لكنه اليوم عاد باكراً على غير عادته.. بفرح يتطاير من عينيه.. ركـض نحـو غرفتنـا وأغلـق الباب خلفـه بينمـا كان يصدر ضحكة يتداخل فيها شخيره ويكاد يقفز من فرحه..

ارتمـى علـى الأرض ومـد رجليـه ثـم دنا بوجهـه من وجهي محاولا أن ينطق أي رمز لأفهمه..

بعد محاولات عصيبة منه وإشارات كثيرة لم أستطع فهمها.. مد يدها الحرة من التشنج والراجفة إلى جيب قميصه ليخرج مئتي ليرة..

مدها نحوي ثم عاد يضحك ويغالبه الشخير على ضحكته.

أشـار بإصبعـه نحـوي ثـم راح يحني أصابعـه برجفة متواصلة

وابتسامة لم تخبُ.. حتى أصابعه إصبعاً.. إصبعاً. أصابع يده الحرة والوحيـدة القـادر على إخضاعها لإرادته حتى وصل إلى العدد 5.. عدنـا خمسـتنا علـى أصابعه.. ثم خرج بجذله مـن الغرفة تاركاً لي المئتي ليرة ووصيته.

– ليلى –

هنـاك كنـا، أنـا وأنت، في مقهىً بحري يتسـلل إليه برد كانون من شقوق ضيقة حفرها الزمن حول أُطر النوافذ الموصدة في وجه البحر ورياحه.

المقهـى غـارقٌ فـي هدوئـه؛ المقاعد شـبه خاوية. لا يشـغلها سـوى أربعـة عشّـاق ورجليـن تعتّقا في هذا المقهـى كما تعتّق كل شـيء فيه. صوت فيروز يطقطق أصابع الهدوء وكأنما البحر وهي استحالا جسداً واحداً؛ ظلاً ووجوداً.

هنـاك فـي ذاك المقهـى تحديـداً كل السـاعات هـي توقيـتٌ فيـروزي.. الصبـح الطازج، الظهيرة المرهقة، الغروب المُتعَب من سـفره والمسـاء الصاخـب بأصوات المتسـامرين في تلـك المدينة الغارقة في تناقضاتها.

– إذاً كنا هناك.. أنا وأنت وفيروز..

«ما أجمل البحر في عينيك..!!».

خفـتَ صـوت فيروز فجأة رغم أنها مسـتمرة فـي غنائها دون كلـل. إلا أنـه صوتـك؛ صوتـك الذي بزغ في مسـمعي وحده قادر أن يطفئ كل الأصوات العابثة ممن حولي. لينهمر صوتك شـلالاً من ضوء.

«أتعلمين، أراهن بعمري على أن أعرف لونهما..».

ضحكتُ جذلى وسألتك سؤال العارف: «لون ماذا؟!».

«لون عينيك..

صدقاً لستُ أمزح.. كيف جمعتا السماء والأرض.. البحر والحقول.. كيف اتسعتا لكون بأسره؟!! كلما حاولت أن أخمن لونهما غرقتُ في فوضى الألوان.. ثم نجوت منك.. بك. لأسبّح خالق الجمال».

«الحمد لله أنك نجوت..» قلتُ ضاحكةً وغارقةً...

قاطعتْ حديثنا الأصوات الآتية من الخارج والمندفعة نحونا. فُتح باب المقهى بحركة جنونية هزّت أركان الهدوء والصفاء في أرجائه. اقتحم المكان شاب بوجه غارق بين عضلات كتفيه العريضتين، ركل الباب بقوة ببسطاره وكأنه يتأكد أن أعين الجميع قد اتجهت إليه وهو يثير هذه الجَلَبة المفاجئة.

بنطال جينز وحزام أسود عريض برأس معدني بارز؛ على جانبيه دُسَّ مسدسان. وقميص أسود يكاد يتهتك مما يخفيه تحته من عضل هو المؤهل الوحيد لحصول هذا الشاب على وظيفته.

لم يدم وقوفه طويلاً حتى تبعه ثلاثة بذات التفاصيل بالكاد تختلف ملامح وجوههم الغارقة بين مناكبهم العريضة جداً!

انحبست أنفاسي وكاد الدم يتجمد في عروقي. في تلك المدينة فتحتُ عيني على ذاك النمط من الحياة لكن ذلك لم يكن سبباً لتبدد ذعري كلما تكررت تلك المواقف. على الرغم من أني كنتُ شاهد عيان في كثير من الأحيان لكن ذعري بقي دائماً كما

لو أنني أعيشها للمرة الأولى.

لأنني كنت في كل مرة أرى برهان مجونهم وجبروتهم في ازدياد مجنون.

بعد وقوفهم يسبرون المكان بأعينهم محاولين قدر استطاعتهم أن يجمعوا شر العالم كله في نظرة كل واحد منهم إذا ما صادف أن التقت بنظرة أحد الموجودين في المقهى في تلك الظهيرة.

أخيراً بدا ظله الطويل على بلاط المكان، سبقه في عبور الباب المشرّع ثم ظهر هو / المعلم/ كُثُرٌ هم هنا ولكن كل واحد منهم «معلم» على طريقته.

كل واحد منهم سلطانٌ على عرشه ولا أحد ينازعه عليه، عروشهم توَّرَّث وتتكاثر. وسعت عروشهم أكتافنا وقلوبنا؛ أحلامنا وإنسانيتنا.

هرع صاحب المقهى في مشهد سينمائي بامتياز؛ يحني رأسه ويرحب بالمعلم «أبو جعفر» الذي حسب قول صاحب المقهى «نوّر القهوة وزادها شرف...».

كان يردد: «لو كنا منعرف أنو حضرتكن – سيدي – رح تشرفونا كنا فرشنا السجاد الأحمر..» وأنا كنتُ أراه يفرش كرامته تحت نعال «المعلم» في تلك اللحظات.

انتهى المشهد السينمائي بإشارة من المعلم أبي جعفر إلى الطاولة التي يجلس إليها العجوزان.

كل ذلك المقهى بكل طاولاته وكراسيه الخاوية لم تكفِه. أشار إلى طاولة العجوزين فهرع أحد رجاله ليقتلعهما عن كرسيهما

كما لو أنهما حشرتان ضئيلتان لا حول لهما ولا قوة.

تعثر أحدهما وهو يمر أمام «المعلم» ليتدارى خارج المقهى فكان تعثره سبباً كافياً لأن يتلقى ركلةً على ظهره المحني؛ فيقهقه رجاله ثم يُجبر الجميع على مشاركتهم الضحك.

كنا نبكي بصوت خافت؛ نندب إنسانيتنا بأنين موجع في صدورنا بينما نفتح أفواهنا بضحكة لا ندري إن كنا نغتصبها أم كانت تغتصبنا في تلك اللحظة.

قهقه الجميع لخفة ظل «المعلم» بينما تبكي إنسانيتنا في زاوية مظلمة من المقهى.

جلس المعلم – أخيراً – إلى الطاولة التي اختارها وأشار بإصبعه إلى العجوز الذي لم يكد ينهض من الأرض محاولاً الهرب من المكان بأقل الخسائر. إلا أن يداً كبيرة أمسكت بياقته لتجره إلى الطاولة.

– كنتُ في زاوية المقهى إلى جانب الشباك وأنت تجلس قبالتي. تمنيتُ لو أنك في تلك اللحظة لملمت خوفي بكفك وحضنت يدي المرتعشة في دفئها. لكنك كنت منشغلاً عني تماماً.

وجدتني أضم نفسي إلى نفسي في الركن القصي من المقهى بينما أنت تراقب المشهد بحذر يغلبه الخوف. لم ألمك حينها؛ فمن ذا الذي لا يغلبه الخوف في حضرة كل هذا العبث والجنون والقهر.

– أُجلس العجوز إلى الكرسي قرب المعلم حسب ما أمر الأخير بإشارة منه ثم مد بسطاره ليتكئ على حافة الكرسي

ملتصقاً برأس العجوز.

وبإشارة أخرى اقترب أحد رجاله منه؛ نفث بضع كلمات في أذنه ليمضي إلى مطبخ المقهى ويعود حاملاً «زبدية محلاية» وشرّاقة!

يصدح صوت المعلم: «وهلأ لازم نضيفك بعد هالوقعة... ولا شو رأيك؟!».

تلعثم العجوز وجبينه المتغضّن يتصبب عرقاً. كلنا كنا نعرف تلك المواقف جيداً.

فمن لم يرَ قد سمع. هذه القصص مألوفةٌ تماماً لكنها يوماً لم تفقد لذعتها ونكهة الذل التي يسعى «المعلم» ومن شابهه دائماً أن تبدو بمرارة واضحة يتذوقها المشاهدون تماماً كما يتذوقها من يتجرّعها.

مدّ العجوز كفه المرتجفة وتناول «الزبدية» وهو يتمتم شاكراً عطايا المعلم. وأمسك المعلم بالشرّاقة وراح يلوح بها أمام ناظري العجوز وهو يبتسم بكل ما فيه من خبث «تفضل..».

حملق العجوز بالشرّاقة: «ب.. ب.. بس....» تأتأ، ولم يُتمّ كلمته حتى كانت يدٌ عُليا تنعره ليُنفذ.

(نفّذ ثم اعترض) علمونا أنه النظام العسكري، لكن النظام السائد هناك (نفّذ وإياك أن تعترض).

– وبدأ العجوز يستجمع أنفاسه المتلاشية ليشرق «المحلاية» بقوامها الغليظ، تبددت أنفاسنا جميعاً بينما هو مستمر بتنفيذ الأمر العسكري.

- القهر...

كل هذا الذل الذي كان يقطر من وجوهنا لحظتها.

القهـر..!! كل هـذا الحقد الذي يُمارس على جثمان إنسـانيتنا دونما سبب..

القهر..!! كل ذاك الصمت الذي لجمنا جميعاً. فكل شـخص منا كان يعلم أنه إذا ما نطق «فحقو رصاصة» أو غياب أزلي ما وراء الشمس...

– منى –

كعادتـي تركـتُ دفتـر ملاحظاتي بين يدي ليلى راجيةً إياها أن تكـون يقظـة كمـا عرفتها دائماً وتدون لنـا – أنا وهي – أية ملاحظة «ذات فائدة» قد يجود بها الدكتور على الطلاب.

بينمـا أنـا لهثـت إلـى أقرب مقعد فارغ فـي المكتبة أحمل بين يدي كتاباً يحتاج إلى كهفٍ ناءٍ كي يُقرأ..

غرقتُ لدقائق محاولةً مجاراة ديستويفسـكي في فلسـفته فإذا بصوتٍ يشتت شمل أفكاري.

– «مذكرات قبو»!! عظيم!

رفعـتُ رأسـي أتبـع مصـدر الصوت. الصوت الـذي لم يكن غريباً. الصوت الذي طالما أصغيتُ إليه في المناقشات التي تحتدّ في أطراف الجامعة والذي طالما اسـتفزني بفكرة لأبحث عنها في كنـف عـدد مـن الكتب. الصوت الـذي طالما حاول أن يجرني إلى ميدان معاركه الفكرية بينما كنت أكتفي بالتلويح بابتسامة بيضاء من مسافة بعيدة متمسكة بصمتي كقشة تقيني احتمالات الغرق.. لكنه هنا لينتزع قشة الصمت من شفتي ويجرني من صوتي نحو يمّه..

رفعتُ رأسي، تبينتُ وجهه وتبينتُ نبضةً تشذُّ عن الإيقاع في قلبـي. لم أعرها اهتماماً في البداية لكن تكرارها جعلني على وشك

ارتجاف.

أيقظني من تخبطي صوتُه مجدداً:

– كتابٌ مهمٌ جداً.. يحتاج عمرين لفهمه..

بقيتُ بصمتي أتابع حديثه، حركة شفتيه. ينتفض قلبي.. أسقط في ذلك العتم الكثير في عينيه أخيراً. ثم ينتشلني مجدداً ليتكرر سقوطي. فكرت أن أصفعني علّي أصحو من هذه الدوامة التي تفاجأتُ بسقوطي فيها.

كنت أعرفه.. أعرف اسمه.. صوته.. عطره.. إيماءاته وحركات يديه بينما يجلس بين أصدقائه كواعظٍ ورث من أرسطو ما لم يرثه سواه..

– اسمي ريان.. (كدتُ أردّ عليه «أعرف» لكني ابتلعتها في اللحظة الأخيرة)

– أنا منى..

– أعرف.. قال وضحكتُ..

أزاح الكرسيّ الذي قبالتي وجلس دون سؤال: أتعرفين، أنا سعيدٌ جداً لأن صبية مثلك مهتمة بهذا النوع من الكتب.

– متى نكفُّ عن تصنيف الكتب حسب الجنس أو حتى العمر؟!

قلتُ محتدة ليرسم نصف ابتسامة ويجيبني بهدوء جعل قلبي ينقبض مجدداً ونبضة أخرى تشذّ عن الإيقاع.

– عندما نكفّ عن كوننا مجتمعاً بحدّ ذاته مصنّفاً بكل أفكاره ومعتقداته ما بين ذكوري وأنثوي.

كنتُ أصغي إليه بينما تطفو نظرة استنكار في عيني رغماً عني..

– حسناً.. تابع حديثه وهو يشير بإصبعه إلى الخلعة التي طالما طوّقت معصمي – أظنكِ من مجتمع صنّف معتقداته وفق الجنس. فللذكر دينه الذي يكنزه سراً دفيناً عن الأنثى المتروكة في ضياعها خشيةَ أن تُعلَّم الدين فتفشيه!

احمرَّ وجهي وصعقتني جرأته. أصابت مني وجعي، ببساطة صبّ حمم حديثه فوق جرح حيرتي المفتوح للشكّ.. للسؤال.. للضياع.

ازدرت ريقي ولبستُ صمتي وتمنيت لو تركني أسكنه كقوقعة هادئة لكنه خرقه مجدداً:

– أعتذر عن صراحتي المفرطة لكن – صدقاً – مثل هذه الأفكار أفقد سيطرتي عليها فتنبعث مني دون أدنى قرار..

هززتُ رأسي وقد غابت عني الكلمات.

– متى تنتهين من الكتاب؟

– ربما في عمر آخر.. (أجبتُه بنصف ضحكة).

– إذاً؛ إذا ما التقينا في الجيل القادم لا بدّ أن يكون لنا حديث عنه.

رمى جملته الأخيرة كلطمة جديدة على خد حيرتي بينما راح يضحك أمام صمتي.

قررت أن ألعن نبضاتي الشاذة وأمضي تاركةً له المكتبة بما فيها.

ما إن وقفت حتى وقف إلى جانبي: حسناً يبدو أني فقدتُ

السيطرة مجدداً..

لم أجبه وليتُ وجهي شطر الباب ومشيتُ. جاءني صوته من الخلف

- منى..

وشذّ النبض مجدداً.. سرت رعشةٌ موجعةٌ بين أضلعي؛ اقترب مني قائلاً:

- أعتـذر حقّـاً، لا بـدّ أني بـدوتُ وقحاً، خاصـةً وأنه حديثنا الأول.. أعني حديثنا الخاص الأول. لكني أرغب حقاً أن نناقش الكتاب فور انتهائك منه.

بدا شخصاً آخر. ينال منه الخجل بطريقة ملفتة جعلت عبارته تخـرج متقطّعـة ومخنوقة.. تابـع بعد أن لملم صوته ليكون أوضح هذه المرة.

- هي فرصة أظنها جيدة لتثبتي لي ألاّ ذكر وأنثى أمام الكتاب.
- حسناً.. سأخبركَ حال انتهائي.

ما إن أردتُ أن أخطو حتى سبقني مندفعاً نحو الباب واختفى.. تـاركاً أنفاسـي عالقـة بعطـره و«وداعاً» صغيرة ترنُّ فـي أذني ليزداد نبضي نبضة جديدة شاذة..

– منى –

ما هذا الـ«ريان» الذي تجلّى لي وسـط صحراء تيهي كنبوءةٍ جديدة..

طرق أبواب أسئلتي؛ رمى بـي إلى اللايقين الذي طالما نجوتُ منه بأعجوبة ثم هربت نحو التجاهل..

غـرز أصابعـه فـي عيـن الحقيقة؛ رشّ ملح أسـئلته فوق جرح شكّي ومضى..

اللقـاء حيـن انتهـاء – مذكرات قبو – إذاً.. ها أنا أقرأها بعطش يلـحّ علـيّ. تلـك التـي تحتاج عمريـن لتُفهم. أقضمهـا على عجل وألهـث نحـو لقائـه. لأبلّـل ريـق السـؤال بجـواب، لأُبـدّل فيـض استفهاماتي بنقطة ثابتة ومثبتة في النهاية.

أو لأهوي سؤالاً بعد سؤال، بعد سؤال في فضاء اللايقين هذا.

– منى –

الكتاب الثالث..

اللقاء الثالث...

أبتلـع الكتـب علـى عجـل وأركض إليه كطالبة نجيبة. أسـقط أكثر.. أبارك سقوطي..

أغرق فيه بكل ما بيننا من تناقض وتوافق. أشـذّ كلّي عن نغمِ «كونة» لأتناغم مع كونه.. فأَكونُه.

علـى طاولـة في الركن القَصي من المكتبة جلسـنا اليوم. امتدّ الحديث من الكتب إلى خارجها فكان الحديث أبـي..

كنت أسرد عليه الحكاية بشغف. أنا التي طالما أوجعني جرح أبــي لأردد كلمـا طالعت وجهه الذي أحرقته الشـمس «كيف حال قلبك الآن يا أبـي؟».

لـم يكـن مـن الصعب تجميع خيوط القصـة. خاصة وأن أمي لا تلبـث كلمـا حانـت لها فرصة أن تسـرد تاريخ أبـي الأسـود كما تسميه وكيف أنها وأسرتها انتشلوه من ضياع كاد أن يبتلعه في تلك البـلاد البـاردة. حيث بُعثَ قسـراً ليحقق رغبة والده ويتخرج طياراً عسكرياً..

وهنـاك كان وحيـداً وحـراً، قرر أن يتمـرد. لم يكن قادراً على

ذبـح دجاجـة، لـون الـدم يصيبه بالـدوار ورائحة البارود تسـبّب له حساسيةً موجعة، فكيف له أن يصير طياراً حربياً!!

يعشـق الشـعر والموسيقى؛ غارقاً برومنسـيته وهناك غرق في عشق فتاة روسيّة تشبه أحلامه.

الحـب والحريـة اللـذان نالهمـا فـي روسـيا خلقا ذلـك الثائر الصغير في قلبه فتمرّد للمرة الأولى والوحيدة في حياته. كان الأمر أشبه بالجنون، انقطع عن الحضور وتجاهل التدريبات كما لم يلقِ بالاً لكل التنبيهات التي كانت تصله من إدارة الكلية. واعتكف بعيداً عن الغاية التي أُرسل لأجلها. كما هو متوقع وصل الخبر إلى جدّي في سـورية، فجُنَّ جنونه. وحيكت مؤامرة لاسـترداد الابن الضال ومعاقبته. اقتيد إلى سوريا كالنعجة التي ذُبحت أحلامها على مرأى منها ولا حيلة لها للدفاع.

هنا كان جدي حريصاً جداً أن يُحكم قيده هذه المرة. وكانت «كونة» القيد الذي كُبّل به.

«لـولا أخدتـو ميـن بـدا ترضى فيه.. فاشـل.. ضيع حالو وهو يركض ورا الروسـيات.. لا شـهادة ولا مركز ولا مال... واحسـرة علي».

تردد أمي التي كانت عروساً مناسبة تماماً لطموح جدي بتقييد ابنه وضمان وظيفة صغيرة له في مركز أمني يرأسه خالي..

– لكن ألم يُقاوم؟

بعـد صمـت طويـل رمى ريان سـؤاله كمن يحـاول إنقاذ بطل الحكاية من هذه النهاية الكئيبة.

- أبـي كتلة استسلام. المرة اليتيمة التي حاول أن يتمرّد فيها علّمتـه أن فـي الاستسـلام راحـة لـن ينالها من قـال «لا».. الحمد لله أنه لم يورثني من استسـلامه شـيئاً. لكنه أورث سلام حظاً عظيماً منه.
- أنتِ ثورةٌ بيضاء..

حملتُ جملته وعلقتُها في رأسي كناقوس لا يكفُّ عن الرّنين..
«أنتِ ثورةٌ بيضاء»..
ويشذُّ النبض مجدداً.

– ليلى –

– «هل تقبلين؟».

– «نعم.. نعم أقبل..».

نعـم وألـف نعـم.. لا تكفـي هذه الأحرف الثلاثـة لأقول إني أقبل..

نعم.. نعم أقبل..

أن أقفل بوابات القلب على اسمك بألف ألف مفتاح وشيفرة لا يعرفها إلا قلبك..

أن أشعل أناملي العشرة حباً لا ينطفئ. أن أشرّع ببيان الروح لروحك تعانقها ولا نفترق..

هل تكفي كل اللغات التي اخترعها البشـر لتخبر هذا السـائل أني ألف ألف أقبل..

ذاك القاضي الذي يعتلي منصة خشبية، رمى على كتفيه عباءة سـوداء. ارتداهـا كيفمـا اتفـق بينما حشـر أنفه بين مسـندي نظارته الطبية. وراح يحدق إليّ؛ بالفرح المتطاير من عيني والذي أظن أنه كان يفرقع الألعاب النارية في أنحاء جسدي فتناثرت ألوانها بإحدى نظراتي لتذهل ذاك العجوز المحملق إليّ بدهشة..

أنت إلى جانبـي، بل أنت في قلبـي وجسـدك يقف جواري.

قامتك تظلني وكتفي تحاول جهدها أن تلامس طرف كتفك؛ لأعود من محاولاتي فاشلة وعاشقة. عيناك تغدقان على المكان نوراً سماوياً؛ يضيء الليل بهما بألف شهقة وألف نجمة. بينما خصلات شعرك تنضم مجتمعة؛ منتهية بفيض من الدهشة لتراقص ياقة قميصك الأبيض التي نصبتها عالياً فغرقت برقصة مع سواد شعرك أمام ناظري دون استحياء...

أبي يمسك كفي؛ يشدّها وكأنه يساعدني على الوقوف بثبات أكثر خشية أن تنبت أجنحتي فرحاً وأطير بعيداً عنه. يحبس دمعةً في جوف أحداقه ألمحها تبرق في وجهي؛ مطلةً برأسها كل حين.. ثم تختفي.

- «أين الشهود؟». سأل القاضي وهو يفتش بين وجوهنا عن ضالته.. تقدم أخي ليث وخلفه رجل آخر ممن يتطوعون للشهادة على الزواج أو الطلاق وأي شهادة حق أو زور تُطلب في هذا المبنى وبتسعيرة مختلفة حسب حجم القضية..
- «هل تقبلين بـ«ورد خالد الحداد «زوجاً لك على سنة الله ورسوله؟».

لفظ القاضي جملته وكنت أردد أحرفها سراً معه. تدربت كثيراً على الإجابة ومثّلت المشهد أمام المرآة عشرين مرة في الليالي الفائتة..

نظمت ألف قصيدة من ثلاثة أحرف وكلمة..

«نعم.. أقبل» أجبته بصوت الجَذَل؛ بصوت الحلم الذي ما

فارق ليلي مذ كنت طفلة..

كبرتُ معك ونضج الحلم من لعبة أنت شريكي فيها إلى خاتم فـي بنصـري وثـوب أبيض يمتد من أسـفل قدمي حتـى آخر العمر بقماش التل وبريق الألماس.

كرر السؤال عليك باستبدال اسمي باسمك؛ أجبتَ بهدوء تام.

رسمت توقيعك قبالة توقيعي وخرجنا من القاعة نحمل وثيقة الرباط المقدس.

معاهدة الفرح السرمدي وتعويذة حولت الحلم واقعاً مرصعاً بالحبور.

زوجان على الورق.. خطيبان في شريعة الأهل، وأيام تفصلنا عن حفل الزفاف لنُعلن زوجين على الملأ.

– «مبروك..» همستها وعانقت بأناملك أناملي المجنونة التي راحت تتراقص في كفك منتشية. قرعت الطبول في قلبـي وأقيمت الأفراح سبعة أيام بلياليها.

– منى –

– «لكن لِمَ ورد؟!».

بـدأ النقـاش بسـؤال صغير وانتهى بسـيلٍ جارف من الأسـئلة يضربني وحدي.. فليلى خارج الدوامة..

ليلـى دائمـاً خـارج الدوامـة، لـم تفكـر أن تبلل نفسـها بمطر السـؤال، تُسـلِّم وتستسلم لتخرج سـالمةً من حرب تسمى الحياة.. تريد «سلَّتها بغير عنب» أخشى أنها ستدرك يوماً أنها إن لم تطالب بالعنب لن يتركوا لها حتى سلّة ترجع فيها سالمةً إلى قبرها..

كدتُ أهمس لها ذات مرة، لكنني تراجعت خشية إيقاظها من سبات السلام الذي يحلو لها..

«لا أحد يخرج من هذه الحياة معافىً مهما بدا مسالماً!!».

ليلـى لا تـرى الحيـاة كمـا أراها ولا تجهد نفسـها في محاولة رؤيتهـا، معجبـة.. مطمئنـة وراضية بهذه الغشـاوة فـوق عينيها وأنا أخاف عليها كثيراً من انقشاع هذه الغشاوة..

كانـت كعادتهـا قـد بدأت الحديث عـن ورد، ولا بد أن ينتهي حديثها بورد..

– ورد.. ورد.. ورد.. لكن لِمَ ورد؟! هل سألتِ نفسَكِ يوماً لِمَ ورد؟

باغتهـا السـؤال حتـى لمحـتُ جحـوظ الدهشـة فـي عينيهـا واحمراراً عنيفاً ينفجر في وجهها.

– ماذا يعني لِمَ ورد؟!

حاولـت أن أصيـغ إجابتـي بحذر وكنت على وشـك أن أنهي الحديث لما باغتتني نبرتها بشيء من العصبية.

– يعني لماذا اخترتِ ورد؟ لِمَ هو دون غيره؟

– لم أختره..

قذفـت جملتهـا وصمتـت كأنهـا تحـاول اسـتفزاز إلحاحـي بصمتها، ثم أردفت بنبرة أكثر هدوءاً.

– هل نختار من نحب يا منى؟ هل نملك القرار؟!

– لكـن كيـف؟! ماذا تعنين بــ«ألا نختار من نحب؟!» إن لم نكن نحن أصحاب الخيار فمن سوانا إذاً؟!!

أجابتني بصوتٍ قوي كمن يحاول إطلاق حكمة:

– الحب هو من يختارنا – يا بنتي – لا نحن..

أطلقتُ ضحكةً عفويّة حاولت ابتلاعها قبل نهايتها..

– شو هالرومنسية!!

ضربت كفها بكفي وهي تضحك خجلةً من حكمتها ربما أو من رومنسيتها التي لم تقنعني.

انتهى حديثنا هنا، ومشينا باتجاه المدرّج كل واحدة منّا غارقة في أفكارها. حاولنا أن نصحو مع دخول الدكتور إلى المدرج ليبدأ المحاضرة. لكني تركتُ أبواب الأسئلة مشرَّعة في رأسي.

كيف لا نختار من نحبّ! كيف لا نملك أدنى قرار في سقوطنا

المسمى حباً؟!

أيعقل ألاّ تمتلك ليلى – مثلاً – قائمة أحلام لتعلّقها فوق كتفي ورد فيكون ملائماً لها.. ملائماً تماماً حد العشق.

أغرق في تفاصيل ليلى وورد مجدّداً. وأجزم أن ليلى لم تمنح نفسها فرصة الاختيار فهي من باحت لي مرةً «أنا أحببتُ ورد حتى قبل أن أتقن تهجئة اسمه، مذ كنتُ أناديه وِرد.. مسقطةً راءه متشبثةً بودِّه!!».

ليلى لم ترَ غير ورد، تفتّح عالمها في حضوره. وكثيراً ما أسأل نفسي هل هذا الالتصاق الطفولي قادرٌ على أن يكبر كحب؟! أن يستحيل حبّاً حقيقياً؟!

هل تسنّى لليلى أن تعرف ورد.. هل منحها هذا الالتصاق رؤيةً حقيقةً؟!

وأقول نفسي مجدداً بينما أنا أتأرجح فوق حبال أسئلتي المعلّقة في فراغ الإجابة: ألم تكن ليلى تحتاج يوماً أن تراه في مدىً بصري طبيعي لتختبر عاطفتها أو حتى عاطفته. لتعرفه؛ لتتأكد من هذا الشيء الصغير الذي يحفر عميقاً في فؤادها.

أووف ما أكثر الأسئلة.. وما أقل اليقين!!

سأنام هرباً من كل هذا الصخب..

– منى –

«كيف انتهى عصر الجواري؟».

بحثتُ كثيراً عبر الإنترنت؛ في دهاليز مكتبة الجامعة الفقيرة. بصقتُ السؤال في وجه أحدهم، فنفث إجابة هزيلة في وجهي ومضى.

اليوم كان هذا السؤال يجول في رأسي الذي التهمته الثقوب.. الثقوب التي خلّفتها الأسئلة.. الأسئلة التي أكاد أهرم وأنا أبحث لها عن إجابات تسدّ رمقها. ثم لا ألبث أن أستسلم مكتفيةً بشرف طرح السؤال كما يدعي ريان «الأسئلة هي مساهمات ضئيلة في العملية البنائية للحضارة الإنسانية».. أقف طويلاً أمام اسمه الذي يمرني وأمرّه كل يوم ألف مرة.. لأرتعش حينها مراقبةً نبضي الذي لا يلبث أن يشذّ عن إيقاعه مجدداً.

كنت أحمل هذا السؤال في رأسي عندما دخلتُ المنزل اليوم. وقعت عيناي على سلام وهي تمدّ ساقيها وتنحني قليلاً إلى جانبها الأيسر محاولةً الاستعانة بوسادة صغيرة ترفع فخذها الأيمن. بينما يرتفع بطنها المنتفخ أمامها يعلو ويهبط مع أنفاسها فيما يداها منشغلتان تماماً في «تقميع البامية». أمي على الطرف المقابل للوعاء تحمل بيدها سيجارة وبالأخرى سكيناً تدس يدها

في الكيس لتختار حبة بامياء توشك أن تغرز السكين في رأسها. تثبت السيجارة بين شفتيها القاتمتين، تغمض عيناً وتفتح أخرى بصعوبة بينما تنفث الدخان وتراقب حركة السكين في يدها.

سلام مقابلها.. ندية الأهداب.

الحزن يسكن وجهها مثل شبحٍ يستوطن بيتاً هجره ساكنوه.

وجه سلام المسكون بالحزن..

أهداب سلام الندية..

بطن سلام المنتفخ..

عذاب سلام..

بؤس سلام..

جحيم سلام..

كل ذلك أطاح بالسؤال الذي كان يئزّ في رأسي ليعتلي المنصّة سؤالٌ أهم وأجدى..

«كيف انتهى عصر الحرائر؟!».

فالرجل ما هجر جواريه إلا بعد أن أحال هو ومجتمعه الأنثى الحرة إلى جارية..

– ليلى –

بخطـوات رشـيقة مشـيت الممـر الطويـل الواصـل إلـى باب المـدرج الرابـع. علـى طـول الممر كان الهدوء والفـراغ غالباً على غير العادة.

سكون مريب سرّب الرعب إلى خوالجي، لا حلقات صخب أقيمـت علـى مطلع الدرج ولا ضحكات تجاوزت فم الحياء قرب باب المكتبة.

دخلـت المـدرج؛ تجـاوزت بابه لأقف مطلـة من نقطة علوي علـى منظـر المقاعد مكتظة بالطلبة في لقطة اسـتثنائية. همهمة غير مفهومة وهمس!!

جلت بنظري في أرجاء المكان باحثة عن فراغ يحتويني. هناك يد تلوح لي، كانت منى كعادتها إما لا تصل وإما تصل قبل الجميع، تجلـس علـى المقعـد المواجه للدكتورة تتسـمّر كتمثال لا يتزحزح بفـارغ الصبـر وكامل الحزم.. هـي كذلك بكل تفاصيل حياتها؛ إما تكون أو لا تكون، تذهب بكل شـيء إلى أقصى الحدود وبكل ما أوتيت من وجود.

نزلـت الدرجـات العشـرين على مهـل أرقب بذهـول الهدوء المنسـكب علـى زوايـا المـكان وأتمحّص تفاصيل الوجـوه الباهتة

والجامدة. رفعت منى الدفتر الموضوع إلى جانبها كإشارة ممنوع الاقتراب أو الجلوس فهذا المكان مخصص لي، فُصّل تماماً على مقاس صداقتنا التي لا تعترف بحدود ولا فواصل والتي لا تقبل تفرقة حتى في مقعد بالمدرج الرابع في كلية الأدب العربي.

– «اجلسي بسرعة..» قالت منى بينما كانت تلملم شعرها الأشقر لتحبسه في كعكة ضخمة في مؤخرة رأسها.

– «ما الأمر؟!».

لهث السؤال من لساني فور جلوسي إلى جانبها، لم تجبني، أمسكت بقلمها وكتبت على الدفتر كلمتين ثم ثبتت الدفتر أمام عيني لأقرأ خطها الركيك المرتعش رغم محاولاتها في ابتلاع توترها.

– «المعلم هون..».

ارتفعت حدة الخوف في جوفي، ازدرت ريقي بصعوبة، شددت أطراف معطفي، وغصت بصمتي.

لم أسأل حتى أيّهم تقصد فلا فرق بينهم إلا بالأسماء؛ الألقاب واحدة، الرذائل واحدة والطغيان واحد.

في وطن مملوك بصكوك تاريخية، بعقود نهب وهمية. في وطن ذوي السلطان والسلطة، لا صوت يعلو فوق صوت رغباتهم «المقدسة».

هناك حيث تعلق المشانق على أعمدة الشعر لتخنق كل حرف لا ينتمي للحزب القائد.

هناك تنصب المقاصل على قوافي القصائد لتقطع رأس كل فكر مارق.

تُغتال الأحلام في مهدها وتُطرح أرضاً لنعبّد بها شوارع الوطن.

سلالات القادة خالدة ومتمددة لا تنتهي بانتهاء الشعب، ولا بانتهاء صلاحية الوجود، فنحن شعب قد تحكمنا الأضرحة.

نكزتني منى بإصبعها وهي تبتسم «سمعت أنه في غرفة العميد.. لا تذوبي خوفاً.. تماسكي».

لا أدري من أين تستجلب كل تلك القوة وتتولد ابتسامتها من أي شعور في مثل هذا الموقف.

لم أذب خوفاً لحظتها لكنني كنت أتمنى لو أنني أختفي.

«ليتني لم آتِ..».

«كل شيء سيكون على ما يرام.. لا تبالغي بذعرك..».

مدت كفها لتشد على يدي في محاولة منها أن تمنحني شيئاً من قوتها، لكنها ما إن لامست يدي حتى أطلقت ضحكتها «أنت تتعرقين خوفاً!!».

«متوترة.. طبيعي..».

«تبالغين بخوفك كالعادة.. حدسي يخبرني أنه لن يدخل المدرج».

«وهل عليّ أن أصدقه؟!».

«المفروض.. هل سبق أن خذلك حدسي؟! اسمعي صوته و(لا تخشي شيئاً)..».

ما إن أنهت منى جملتها حتى كانت الدكتورة قد أطلت من الباب السفلي للمدرج. مشت بضع خطوات وارتكزت في منتصف

المنصـة. رصّـت مجموعـة من الأوراق التي كانت في يدها بعضها بعض فوق على الطاولة المستطيلة التي أخذت كل الحيز الأمامي من المنصة كسد ينتصب بيننا وبين ذوي العلم وأصحاب المعرفة.

اسـتهلت الدكتورة المحاضرة بينما كنت مع كل كلمة تنطقها أبـذل قصـارى جهـدي أن أنصهر في بوتقة كلماتها. أن أنسـجم في جو الدرس علّ خوفي يتبدد شيئاً فشيئاً..

انتهـت المحاضـرة وغـادرت الدكتـورة المدرج. ظـلّ الطلبة ملتصقين بمقاعدهم بجمود وأنا منهم، لم يجرؤ أحد على الخروج، فالغـول علـى تخـوم المـدرج ولا رغبة لأحد بـأن يكون أضحوكته وضحيـة لسـخريته ونكاتـه المبتذلـة. هذا كان هاجس الشـباب أما الأنوثـة فـكان هاجسـها أكبر من نكتة يضحـك عليها الجميع تملقاً وتمضي.

الرعب كان يدبّ في عروق كل صبية ضمن أسـوار «الحرم» الجامعي. الرعب من أن تُساق إلى قدر ينتظرها خارج الأسوار..

مـا هـي إلا دقائـق بطـول سـاعات حتـى أطـلّ رأس أحدهـم مـن البـاب المقابل لخوفنا، ليطلق سـراحنا مـن قفص الرهبة الذي انكمشنا داخله:

«إفراج.. إفراج!!».

.....

وسط زحام المدينة في أكثر أسواقها صخباً. كم يبدو المنظر شهياً للحياة، كم تبدو الوجوه ممتلئةً بها. وكم كنا نبدو مطمئنين!!..

أنـا ومنـى مشـهد مثالـي للتعايـش، حكاية حقيقية عـن انعدام

الفوارق وصداقة لا تعرف إلا بمنطق القلوب.

رسغها المطوق «بخلعة» خضراء يندس في مرفقي ونمشي. شعرها الأشقر الذي لا تلبث خصلة منه أن تنفلت لتعانق حجابي. كل تلك التفاصيل التي ما استطاعت يوماً أن تصنع فارقاً بيننا.

تقف أمام محل لأثواب النوم، تشدني من ذراعي وتضحك بخبث: «هذا يليق بكِ، سيسرق لبَّ ورد.. تعالي لنشتريه..».

أضحك وأتبعها كطفلة مطيعة؛ دون أدنى اعتراض.

منى كانت جرأتي المختبئة تحت ألف غطاء من خوف. تدخل المحل؛ تناقش البائع حول ثمن البضاعة. تفوز دائماً بلعبة «المفاصلة». تخرج منتصرة؛ تحمل ما اشترته بالثمن الذي أقرته وتضحك..

«ماذا بقي ينقصك يا عروس؟».

«أنتِ أدرى..» ونضحك ملء قلبينا...

– منى –

الكتاب العاشر..

كان مُصـرّاً أن أقـرأ نسـخته التي قرأها هـذه المرة؛ حيث دوّن ملاحظاته في الحواشي وعلى الهوامش.

لم أكن أعلم أني حين أفتح الكتاب الذي طالبني ألاّ أقلّبه إلا بعد ذهابه. لم أكن أعلم أني سأجدني مكتوبة هناك بكلّ تفاصيلي.

تخلّصـتُ مـن صحبة ليلى بحجج سـخيفة وطالبتها أن ترجع دوني اليوم. فلديّ في المكتبة كتابٌ لا يؤجَّل.

فتحـتُ الكتـاب؛ فـي الصفحة الأولى بـدا خطّه رائقاً أنيقاً. لو أنني سُئلتُ أن أتخيل خطّه لكنتُ تخيلته بهذا الرسم تماماً. خطوط تنحنـي لتقـف بثبـات، نقـاط في مكانهـا تماماً. ثم نهايـاتٌ مفاجئة محرَّرة من كل قيد.

رحتُ أقرأ وألهث بين حرف وآخر..

«شؤونٌ صغيرة

تمر بها أنت.. دون التفات

تساوي لديّ حياتي

جميع حياتي..

حوادث.. قد لا تثير اهتمامك

أعمر منها قصورا
وأحيا عليها شهورا
وأغزل منها حكايا كثيرة
وألف سماء..
وألف جزيرة..
شؤون..
شؤونك تلك الصغيرة
فحين تدخن أجثو أمامك
كقطتك الطيبة
وكلي أمان
ألاحق مزهوة معجبة
خيوط الدخان
توزعها في زوايا المكان
دوائر.. دوائر
وترحل في آخر الليل عني
كنجم، كطيب مهاجر
وتتركني يا صديق حياتي
لرائحة التبغ والذكريات
وأبقي أنا..
في صقيع انفرادي
وزادي أنا.. كل زادي
حطام السجائر

وصحن.. يضم رمادا
يضم رمادي..

* * *

ويوم أجيء إليك
لكي أستعير كتابا
لأزعم أني أتيت لكي أستعير كتابا
تمد أصابعك المتعبة
إلى المكتبة..
وأبقي أنا.. في ضباب الضباب
كأني سؤال بغير جواب..
أحدق إليك وفي المكتبة
كما تفعل القطة الطيبة
تراك اكتشفت؟
تراك عرفت؟
بأني جئت لغير الكتاب
وأني لست سوى كاذبة
.. وأمضى سريعا إلى مخدعي
أضم الكتاب إلى أضلعي
كأني حملت الوجود معي
وأشعل ضوئي.. وأسدل حولي الستور
وأنبش بين السطور.. وخلف السطور
وأعدو وراء الفواصل.. أعدو

وراء نقاط تدور
ورأسي يدور..
كأني عصفورة جائعة
تفتش عن فضلات البذور
لعلك.. يا.. يا صديقي الأثير
تركت بإحدى الزوايا..
عبارة حب قصيرة..
جنينة شوق صغيرة
لعلك بين الصحائف خبأت شيّا
سلاماً صغيراً.. يعيد السلام إليّا..

* * *

إنه لظلم عظيم أن يبدع نزار كل هذا العشق ببحة أنثى ونبقى نحن الذكور بانتظار قصيدة واحدة تتقن كتابتنا بمثل هذه التفاصيل؛ بمثل هذه الدقة والصدق.

أرأيتِ حتى الشعر مقسوم على نفسه ما بين / تذكير وتأنيث/ فكل قصيدة أنثى.. وما الشعر إلا مذكّر..

ملاحظة: كل ما قد سبق ملحوظة على الهامش.

والآن إليكِ نصُّ الرّسالة يا صديقتي: أحبُّكِ».

– منى –

غـادرتُ البيـتَ علـى عجـل، أحمل صوته فـي قلبـي أغنية لا تعرف التعب، ومن حولي تناقضات أهلي تكاد تلتهم فرحي الصغير.

هربـتُ وتركـتُ خلفـي سـلمى تنتحب مثل ثكلـى إثر خلاف «عظيم» على حدّ تعبيرها، وقع بينها وبين رائد. كانت تكرّر خوفها أمامي:

– لستُ أبكي قرار انفصالنا، إنما أبكي خوفي من لؤمه.

ترك رائد خلفه تهديداً مختصراً بجملة واحدة لن يدرك معناها إلا مـن عـرف الفوضـى التـي تحيـق بنا ها هنا مـن كل صوب. من عرف رائد عن كثب ومقدار سـلطته وخبر جنونه الممزوج بخبثه. علّق كلمتين كقِرطٍ في أذن سلمى.

«ما بكون رائد إذا ما كسّرتلك هالراس».. وتركها خلفه تضرب أخماساً بأسداس.

تسـتنطق حدسـها فيأبى أن ينطق. في الركن الآخر من الغرفة تركـتُ فـرح تتراقـص جذلى أمـام المرآة. تنثر شـعرها فوق كتفيها بكامل ألقه وجنونه. تكركر ضحكاتها بغنج ولا تفصح عن السبب. تكبـر فجـأة هـذه الفتـاة التـي لا أراها إلا طفلة رغـم قامتها الفارعة وجسدها الناضج كثمرة لفحها الصيف على حين غرة.

غارقتـان فـي تناقضهمـا، تركتهمـا خلفي، وتركـتُ أمي على عتبة البيت تنفث دخان سيجارتها بينما تغبُّ المتة وتتبادل أطراف حديـثٍ مـع جارتهـا أم صالح التي لا تملُّ من مضغ سـير الجيران بيتاً بيتاً كوكالة أنباء حصرية.

تركتُهـم كلهـم خلفـي، وركضـتُ حاملـة في صـدري فرحي الصغير «صوته». أكاد ألمح زغب أجنحتي ينبتُ على حين عشق، فأحلّق نحوه بكلّ ما أوتيتُ من شغف.

أمـام بـاب الكلية كان يقف يحمل ابتسـامة نَضِرة فوق شـفتيه كطفلٍ في مقتبل الفرح.

أحاول حصر النور الذي يسطع من ملامحه في عيني. يقترب فيهطـل العطـر بغتـة مـن كل صـوب، وأهمـس في قلبـي «يا ربَّ القوّة»..

أصلّـي لأصمـد بينما هو كمجوسـيٍ يشـعل النـار في صدري ويرقص حولها. يصلّي لأحترق أكثر، ثمّ يقدّس رمادي.

لملمنـي بين كفيه ومشـينا. الصمـت يلفنا فكأنّما «تعطّلت لغة الكلام» صارت الأحرف باردة وضئيلة، واللهفة أعظم من أن تكبلها لغة.

صمتنا كما لم نصمت من قبل صمتاً غارقاً في المعنى؛ مبللاً بمطر الصخب؛ منهكاً من قيد صوت.. بينما تغرّد فيروز في خلدي «لشو الحكي عند التلاقي سوا..».

لا أذكر كم جملةً تبادلنا في هذا اليوم الشتوي الدافئ على نحوٍ غريب. وكم زهرةً أينعت في روحي رغم أنف الفصول. رجعتُ إلى

البيت وارتميتُ في فراشـي. لا رغبة لي بأي حديثٍ من شـأنه أن يهشّم صرح الصمت الذي شيدناه معاً. خبأتُ رأسي تحت الوسادة ولجأت إلى الحلم...

– منى –

صوت مرهف في الصالة يخنقني وكأنه يستهلك كل أوكسجين الحياة من الجو.

أفكّـر مـاذا لـو كان هنـاك مخـرج آخر أهرب مـن خلاله نحو الشارع دون أن أضطر لمقابلته. خندقٌ مثلاً أو كوّةٌ سماويّة..

تدخل أمي الغرفة تكاد تجذبني من شعري لأخرج إلى الصالة.

– ابن خالك في الصالة.. حضري المتة وتعالي.

أطالعها ببلاهة فتكمل:

– يقول متة منى غير..

تغمزني بعينها وتنتصر على عقدة حاجبيها باذلةً ابتسامة خُلقت كُرمى لمرهف. تنكزني بقبضتها لأخرج وتسبقني إلى الصالة.

خرجت وقد قررت أن أختصر جلستي معهم قدر المستطاع، فلن أجعل ريان ينتظرني بينما أنا أهب وقتي لمن لا يستحق.

ألقيت سلاماً بارداً مثل ملامحي التي لم تفلح بإنجاب ابتسامة. نهض من مكانه ومدّ كفه مطلقاً لسانه بكل ما يعرف ويتقن من جمل الغزل التي أعرف تماماً أنها لم تكن يوماً حصرية لي.

– أتعرفين ما إن وصلت حتى أتيتكم..

أومأتُ برأسي فأكمل موضّحاً:

- هي وصلتي من لبنان.. اشتقتلكن.

قالها ضاحكاً؛ مركزاً نظراته في عيني متجاهلاً أمي التي ابتلعت صوتها وراحت تتابع المشهد بفرح ظاهر..

كدتُ أسأله عن سبب سفره إلى لبنان لكني عزفت عن السؤال لعدم رغبتي بخوض أي جدل معه أو حتى مع أمي. فأنا أعرف السبب جيداً؛ الأمر ليس بجديد. فمرهف يسافر كلما نال منه السأم هنا. رحلة للتجديد؛ لتغيير النكهة على حد تعبيره.

طالت جلسته، وكلما هممت بالمغادرة امتدت يد أمي نحوي بقرصة لتقنعني بالبقاء. فأجلس على مضض، بينما نار الانتظار تنهش صبري، وقلبي يهوي في بئر توتره وشوقه. ريان ينتظر أمام المكتبة، وجوالي يرن كل خمس دقائق، ثم رسالة لم أجرؤ على قراءتها حتى لا تشاركني ذلك أمي التي التصقت بي. أخيراً لم أحتمل أكثر من ذلك. نهضتُ متجاهلةً أصابع أمي التي انضمت لتقرص فخذي بلؤم.

- أعتذر.. لكن محاضراتي بدأت منذ وقت.. لا بد أن أذهب.

نهض مرهف من مكانه وسبقني نحو الباب:

- أنتظرك في السيارة إذاً..

عضضتُ شفتي قهراً ولم أجب. ارتديتُ ملابسي على عجل وخرجت إلى الشارع.

كانت سيارته الـ BMW في وسط الشارع وقد شرّع نوافذها بينما صوت مطربه المفضل يصدح من المسجل وقد ملأ صخبه الحارة كلها.

طابـور مـن السـيارات يصطـف خلفه. لا أحـد منهم يجرؤ أن يستخدم بوق سيارته ليذكّره أن الطريق ليس مطوّباً باسم أبيه. ذلك أن جميعهم يعرفون أن كل الطرقات قد تستحيل ملكاً لخالي الذي يعدُّ أصغر الرّتب وأقلها سلطة في زمرته.

– وصلنـا الجامعـة كنـت حريصـة جـداً ألا يلمحني أحد من الزمـلاء وأنـا أنزل من سـيارته. وأكثر خوفي كان أن يراني ريان.

تركـتُ مرهـف خلفـي يلعن جنوني وكبري. لم ألتفت إليه إلا بعـد أن سـمعت فرامـل سـيارته تعلـن جنونـه فوق أسـفلت الحرم الجامعـي. التفـتُ لأراه يمـارس غضبـه بالطريقـة المألوفة لأمثاله. يحوم في ساحة الجامعة؛ يصبُّ جام غضبه ذُعراً في نفوس الطلبة.

تعثّـرت إحداهـن رعبـاً وسـقطت أمام عجلات سـيارته. أطلّ برأسـه مـن النافـذة ملقيـاً لعناته وشـتائمه وكلَّ بذاءتـه حمماً عليها وعلى من حولها.

كنتُ أراقبه بغيظي ونهر من الحزن الغريب يدفق في فؤادي.. يا الله ما هذا الجبروت!

انتهـى العرض أخيراً ومضى بسـيارته تـاركاً النفوس محمومة برعبها.

صادفتُ ليلى مثل طفلةٍ مختبئة في ظل شجرة. الدمع تكاثف في عينيها وأنفاسها في سباق موجع تعبر صدرها المرتجف. لعنتُ نفسـي ألف مرة قبل أن أشـدّ على يدها لأطمئنها بانتهاء العرض. قضيت بقية اليوم أفتّش عن ريان في أروقة الجامعة.. ولم أجده..

– منى –

أكرّر اتصالي به منذ يومين إلى أن يتعب الرنين، ويأتيني صوت امـرأة بلهـاء تخبرنـي ألا طائـل من محاولاتي «الرقـم المطلوب لا يجيـب علـى مكالمتكـم» وكأننـي بحاجة لمن يؤكّد لـي ذلك.. أنا أعرف يا سـيدتي أنه لا يجيب.. أنه لا يريد أن يجيب وأنني أغرق في فراغ غيابه بكل حواسي حتى أكاد أفقد قدرتي على البقاء..

وأسأل نفسي كل حين «كيف كنتُ من قبله؟!!».

كيف كانت تبدو ملامح الحياة قبل أن يتبدّى وجهه فيها؟!!

أنهـار علـى شـفا غيابه ويتعبني إحصـاء الاحتمالات. رجعتُ اليوم من الكلية بصحبة ليلى. كنتُ أحمل تعبـي فوق وجهي الأمر الـذي جعـل ليلـى تصـر ألا تتركني وحدي.. مضينا معـاً إلى بيتها. أحبُّ ذلك الحي، مسالمٌ كحمامةٍ تغفو بوداعة وسط غابة الجنون. وصلنـا منـزل ليلـى وهنـاك اسـتأذنتني لتتركني فـي غرفتها وحيدة. أحمـل الجـوال مجـدداً.. أحـاول الاتصـال، فيقفـز صـوت المرأة المبرمجة على الطرف الآخر.. أسقط في خيبتي وأعيد الكرّة..

ثـم أطلّـت ليلـى من باب غرفتها؛ الماء يقطر من أعلى رأسـها حتى أخمص قدميها. تدثرت في غياهب حجاب اتسع لكل صباها. تمتمـتْ بصـوت خفيـض بضع كلمات ثـم غاب صوتها في بئر من

خشوع بينما رحتُ أرقب النور الذي خلته يتبدى في ملامحها شيئاً فشيئاً.

رحتُ أراقبها بعين قلبـي. أراقب يقينها بينما أغرق في ضياعي.

أتحسس طمأنينتها ويوجعني قلقي.

تنحني.. ترتفع.

وأنا في مكاني أحسدها على هذا الدفء الذي أشعر به ينبعث في روحها.

وأنا يقتلني الصقيع.

يا الله هبني يقيناً.. خذ بيدي من دوامة الهباء هذه..

– ليلى –

– يـا منـى هـا أنا أرفع رأسـي لألفظ أسـئلتي حمماً في وجه الكون..

أرفع رأسي بعد أن جعلني انحنائي مطية للعذاب..

أين أنتِ لتنقذيني من حمى الاستفهام التي استبدت بـي..

أيعقـل أن أولئـك الذيـن نالوا جحيمهم فـي الحياة، أيعقل أن ينتظرهم جحيماً آخر في الآخرة؟!

أيّ الجحيمين يا الله أوجع؟!!

– في رأسي أسئلةٌ كثيرة يمكنني أن أقضّ بها مضجع الكون لو أنه يسـمعني فقط. لو أنه يمنحني الفرصة لأقول شـيئاً قبل أن أُتم تلاشيّ..

– «لماذا أنا؟!!..».

مـا الجـرم التـي ارتكبتـه لتُصلـب روحـي وتـأكل الغربان من قلبـي؟!

مـا الإثـم الذي لـم يرتضِ الإله أن يؤجل عذابه للآخرة فألقى بجحيمـه هنـا علـى الأرض. كل الجحيـم تكـوّر كجنين في جوفي ينهش جسدي وتتلظى به روحي.

في ذلك اليوم؛ هل كان سـيتغير قدري لو أنني تأخرت بضع

دقائق؟!

في ذلك اليوم قبل الكارثة بساعة...

- في الساحة الخارجية للجامعة نُصب شادر بلون بني قاتم يشبه لون الطين الذي تجمع في حلقات صغيرة متفرقة حيثما كانت التضاريس مواتية على أرض الساحة..

عُلق في أعلاه يافطة من القماش أظنه كان ذات يوم أبيض قبل أن تطبع قطرات المطر الممزوجة بالغبار والدخان قبلاتها على وجهه. بخط عريض من الطلاء الأزرق كُتب على ذلك القماش: «معرض الكتاب»..

كان طلٌّ من المطر الناعم يقطر بهدوء حولي وعلى حجابي الأبيض الذي خشيت عليه أن يترك المطر آثار قبلاته عليه كما حل بتلك اليافطة، فعجّلت الخطى لألوذ تحت الشادر المدعو بـ «معرض الكتاب»..

لم يكن في نيتي أن أشتري كتاباً. كل ما كان يجول في خاطري أن أحتمي من الرهام الذي استحال وابلاً في الخارج ريثما تنتهي العشرون دقيقة المتبقية حتى تدق ساعة سندريلا معلنة وصول الأمير.

مذ لحظة دخولي المعرض وأحدهم الذي يبدو أنه مسؤول عن هذه «البسطات» المرفوعة فوق أعمدة حديدية مستترة بقطع قماش سوداء، كان يلاحقني خطوة خطوة. لا أحد إلاي في هذا المكان بعد أن انصرف معظم الطلاب إلى بيوتهم بعد هرباً من العاصفة ومنهم «منى» التي لم ألمحها اليوم. أظنها كانت تمارس –

وحيـدةً – انتظـاراً جديـداً. أما العشـاق منهم فلجأوا إلـى الكافتيريا ليتمّوا مراسـم المطر مع فيروز وفنجان قهوة أحدهم «يشـرب من فنجانه».. والآخر «يشرب من عينيه»..

ولم تكن أبداً فكرة سـديدة أن أحشـر أنفي بين تلك الجموع العاشقة والمتفرقة على طاولات المقصف أزواجاً.

كان صاحـب «البسـطات» يرمقنـي بنظراته الحادة كلما وقفت أستطلع كتاباً ما، هاربة من تكات الساعة الثقيلة والبطيئة حد الملل كسلحفاة تحمل الكون في قوقعتها..

«سكرنا.. سكرنا».

أخيـراً، جـاء صوتـه بعدمـا يئس مني واسـتوعب فكرة أني لن أشـتري حتى كتيباً. فلقد قلبت صفحات عشـرة كتب وأعدتها إلى مكانها ليتبعني بكفيه مقوّماً اعوجاج تكدسها الذي كنت سبباً فيه.

لم أجبه بشـيء فقد كانت نبرة صوته لا تقبل الجدال. رفعت تلابيـب معطفـي لتغلف وجنتي وخرجت تحت الغيوم التي راحت تفرغ ثقلها على رأسي فيزهر اشتياقاً.

جـررت خطواتـي إلـى خـارج السـور الجامعي والغيـم ينزل حمولته فوق رأسي. فتشت عن ظل أحتمي فيه من المطر، فاختبأت تحت شـجرة أرخت أغصانها على الرصيف قرب البوابة. ورحت أرقب الطريق بملل وتأفف. ربما ما كان عليّ أن أخرج قبل الموعد حتى ولو دسست جسدي بين أجساد العشاق في المقصف، لكان ذلك أفضل من حالي الآن وأنا أقطر ماء من رأسي حتى قدمي.

ناظـرت سـاعتي؛ بقيـت عشـر دقائـق. فليكـن إذاً، سـأراقب

انسـجام الأرض مـع المطر؛ عناق السـماء للغيـم، وانهمار الدموع لحظة اللقاء.

بعـد لحظـات من التأمـل أخرجت مرآتي مـن الحقيبة لأتفقد ملامحي بعد أن اغتسلت بماء السماء قسراً.

أمسكت قلم الكحل لأعدل آثاره التي سالت على جفني.

رفعت رأسـي أولاً، تأكدت من خلو الشـارع من أعين متطفلة وعدت بنظري إلى المرآه أرسم بالكحل جفني كما تحبهما..

سمعت صوت محرك سيارة يقترب؛ رفعت بصري لأتأكد إن كنت أنت. لكنني وجلت حين كاد أن يضرب رأسي بكتف أحدهم وقد وقف مواجهاً لي وقريباً حتى أنه كتم أنفاسي.

هي ثوانٍ معدودة، واستوعبت بعدها هيئة الواقف أمامي يضع على عينيه نظارة سـوداء قاتمة رغم اعتزال الشـمس لسـمائنا ذلك اليـوم، تي شـيرت سـوداء وبنطال أسـود دس إلـى جانب خاصرته اليسـرى مسدسـا.. بـدا لي كشـبح لأول وهلة، لكننـي أدركت من يكون حين انتبهت لسـيارة المرسـيدس السـوداء أيضاً والتي تسـد الطريق أمام البوابة.

«المعلم بدو إياكي..».

نطق الصنم الملتصق بوجهي حتى أن أنفاسه اخترقت أنفي.

«أنا؟!!».

أجبتـه بصوتـي الذي خنقته الرهبة والخوف. لم يجبني اكتفى بجري من يدي كأية دابة تُساق ولا تُسأل. سقطت المرآة من كفي وتملص قلم الكحل من أصابعي ليتركني وحدي..

حاولت التخلص من تلك القبضة أنا أيضاً لكن بلا جدوى.

تلفتُ حولي بحثاً عنك.. ألم تنقضِ الدقائق العشر اللعينة!!

بحثت عنك، اختفى صوتي فلم أجده.. لم أعد قادرة على الصراخ الذي كنت أدرك مسبقاً ألا فائدة منه.. فلن ينقذني أحد من براثن الوحش الذي أُساق إليه..

دمائي تتجمع في عيني، تكاد تنفجر عروقي التي تصلبت وأقحلت. جسدي لوح خشب يلقى به إلى كرسي داخل سيارة مرسيديس سوداء، وتنطلق السيارة تقودني إلى حتفي.

لحظات جمود؛ صمت بسكون الموت وعذابه. رفعت عيني لمحت ضوءاً أحمر يخترق عتمة السيارة التي خيم السواد حتى على نوافذها.. كان ضوء الساعة والتي كانت تشير إلى 2:30؛ موعدنا..

إنه موعدنا فهل تراك وصلت؟؟! أم أن مرآتي ما زالت هناك ووجهي منسي على شظاياها ينتظرك تحت مزاريب السماء!!

أُتُراك تبحث عني الآن؟ هل ستطلبني على الجوال؟ أم ستنتظر أكثر؟

ريثما أُساق إلى جهنمي بسيارة مرسيدس سوداء يقودها شبح متجهم وإلى جانبه الشبح الآخر الذي قذف بي إلى جوف الجحيم وإلى جانبي «المعلم» الذي لم أرغب أن ألقي عليه حتى نظرة واحدة. اكتفيت بمراقبة الساعة والصمت الذي قاطعه رنين جوالي. حاولت أن أفتح حقيبتي لكن تلك اليد كانت أقرب إليها مني، أمسكتها وقذفت بها من النافذة. قذفت بك إلى الأرض الملطخة بالوحل...

يـد أخرى تتسـلل من خلف عنقـي لتقبض على كتفي بإحكام يدفعني إلى جانبـي الأيسر حيث يجثم الموت بقميص أبيض أزراره الأربع الأولى حرة أكثر مني..

اقتـرب بوجهـه منـي فبـدأ الغثيـان يخنقنـي رائحـة السـيجار والويسكي تنبعث منه لتتغلغل في جوفي...

المطـر الـذي بللنـي ينجدنـي منه هذه المـرة؛ ينعرني ويلعنني مبتعداً عني. يطلق لسـانه بالكفر ويضجع على كوعه الأيسـر بينما يرفع قدميه فيكاد أن يلامس بحذائه رأس الشوفير.

وأتكوم أنا على نفسي.. بصمت مطلق.

– منى –

استيقظتُ على ارتجاج خفيف من الجوال ورسالة نصيّة:
«هذا الصباح قارصٌ.. هبيني دفأكِ»..
قفزت من فراشي مثل مجنونة لدغها الفرح فجأة..
أخيـراً هزمـه الشـوق، لا أدري كيف وصلـتُ الجامعة، كانت شبه خاوية. المطر ينهمر بجنون والأماكن تكاد تشهد حظر تجوال فرضه الطقس، لا أحد هنا تحت هذا الوابل إلا من غلبهم الشـوق وأرداهم مجانين في شوارع المدينة يتسولون لقاءً، أو من أرغمتهم الحيـاة علـى تجاهـل جنون الطقس ليعودوا آخر الليل وقد أمنوا ما يسد رمق أطفالهم.
مضيتُ نحو المكتبة، كان الطريق أطول من كل أيام الانتظار. البرد يبسـط أذرعه كأخطبوط في أركان اللاذقية، وريان يقف أمام بـاب المكتبـة. بملامـح باردة وجاكيـت بني تحته يلوح قميص بيج بينما يلف حول عنقه شال غارق بين اللونين. يحاول وأد ابتسامته التـي تقاومـه لتفـرّ من بين شـفتيه نحوي، فأتلقفهـا بينما هو يتلقف خصـلات شـعري المبللـة يعتصرها بيـن أنامله. يدنيها من شـفتيه؛ يستنشقها.. يقبلها.. ثم يفلتها طويلة وحرة كما يحبها تماماً..
تثرثر أعيننا وتصمت الشفاه كما اعتادت. يا إله الصمت ما أبلغه!

عاتبتـه.. غضبـتُ منه.. لعنته وعانقته. كل ذلك في بضع ثوانٍ وصمت.

وراحـت «نجـاة» تدنـدن فـي خلدي: «سـامحته وسـألت عن أحواله..

وبكيتُ ساعات على كتفيه..

ما أحلى الرجوع إليه.. ما أحلى الرجوع إليه..».

سطعت الشمس أخيراً. تمدّ رأسها فوق أكتاف الغيم.. تراقب ملامـح المدينـة التي اغتسـلت لتوها بدمع السـماء. مشـينا بصمتنا البليغ نحو الحديقة. جلسنا في ظل شجرة أرهقتها الثرثرة فمنحناها الصمـت بـرداً وسـلاماً. راقبنا معاً نشـور الكون بعـد موته الأخير؛ تنفسنا عبق اللقاء متلهفين للوصال.. منهكين من النوى.

أخيراً كسر قارورة الصمت بجملة واحدة:

– رأيتكِ تنزلين من سيارته..

صُعقت وانتابني خجلٌ مقيت حاولت تجاوزه وتبرير الموقف فأجبته:

– ابن خالي..

– بـل أكثـر مـن ذلك. رأيت المشـهد كامـلاً.. راقبتُ جنونه وغضبه.. هو أكثر من ذلك..

بذلـتُ كل مـا فـي قلبـي من عشـق لأرمم ذلك الشـرخ الذي أحدثه مرهف بيني وبين ريان.

بكل ما بـي من وجد حاولت ترميم ما انهار بيننا وأظنني نجحت..

* * *

- ولكـن لِـمَ هـذا؟! أنا أعرف أنك لا تحب هذا التفصيل في شخصيتي. فلِمَ تُشعل لي سيجارة هنا؟ في العلن!

كنتُ أحدّق إليه بعينين تلتمع الدهشة فيهما ممتزجة بالحيرة. لكنـه كان يطالعنـي بجديـة مفرطة وزمَّ شـفتيه فـي محاولة لالتقاط إجابته التي لن تزيدني إلا دهشة..

- مـن قـال إنـي لا أحبُّ هذا التفصيل في شـخصيتكِ!! كما تدعين! أنا أحبّكِ بكل كينونتكِ.

ربما لسـتُ ممن يسـتمتعون بمنظر الدخان وهو يتصاعد من فتحتـي أنفـكِ وكأنمـا قطـار عبر للتو قصباتك الهوائيـة تاركاً خلفه تلك الغمامة..

لفـظ ضحكـة عفويـة بعد جملته الأخيرة لكنـي قابلتها بتجهم مبالغ فيه، فلقد أزعجني التشـبيه. لم يلقِ بالاً لردة فعلي بل أكمل حديثه قائلاً:

- كلُّ مـا فـي الأمـر أنني لا أهـادن العالـم.. «فليكن المظهر كالجوهـر.. وليكـن الظاهـر كالباطن». ما دمتِ تمارسـين حريتكِ فلتكن حريةً حقيقية بغير نفاقٍ ذاتي أو اجتماعي.

أنهـى حديثـه وهـو يمدُّ الولاعة إلى السـيجارة التـي ثبتَها بين شـفتي وراح يرمقنـي بنظـرة تحـدٍ وتحريـض. وكنـتُ وحـدي في مواجهـة كل حـركات الشـغب التي أثارها داخلـي، ونظرته لا التي

أملك لها دفعاً. اقتربتُ من الشـعلة الزرقاء الصغيرة التي نبتت في رأس الولاعة؛ سحبتُ نفساً عميقاً فتوهج وجه السيجارة مشتعلاً. لفظتُ دخانها «كغمامةِ تركها قطار عابر.. في حلقي!».

ابتسم رافعاً علامة النصر، ثم قفز ليعتلي السياج الصغير الذي يفصلنـا عـن ثلـة مـن أشـجار الحور المزروعة فـي أقصى ركن من الحرم الجامعي. ثبّتُ سـيجارتي بين الوسـطى والسـبابة بينما أقلد قفزته لأجلس ملتصقةً بعطره أشاركه ابتساماته المتواصلة.

– ليلى –

تركت الشمس خلفي؛ دخلت سرداباً طويلاً من الظلام. لم تكد عيناي تميزان أركان الغرفة التي حشرت فيها حتى وقعتا على جسده وهو ينزع عنه ملابسه قطعةً قطعةً. تمنيت لو أن الظلام ظل جاثماً على بصري.

رحتُ أهرب بنظري عنه؛ أتفقد ملامح المكان.. أين المخرج؟!

كان الباب الذي أُدخلتُ منه على الجهة اليسرى من الغرفة. رحت أخطو بهدوء نحوه، وأنا أدرك يقيناً أنها محاولةً غبية، لكن جسدي الغريق يبحث عن قشة حتى ولو كانت من وهم.

ما كدتُ ألتفتُ حتى كانت ذراعه تحيقني من خصري ويده الأخرى تنزع عني ستري.

بحثتُ عن صوتي فجاء منكسراً؛ صراخه نحيب. لا أدري كيف خفت ولا كيف خانني وخذلني.

كنت أحتاجه كأدنى وسيلة أملكها للرفض.

عندما استحكمت قبضته حول خصري وبدأت أنفاسه تلسعني كألسنة من لهب؛ غرزت أظافري في عنقه الملتصق برأسي. فشدني من شعري مثل ثور هائج، لفّ شعري حول معصمه؛ أدار وجهي ليصبح وجهاً لوجه مع صفعاته. راح يصفعني بكف من حقد

وعينين تقدحان شهوةً وغضباً.

رحـتُ أعـد الصفعات.. بصوت مسـموع: «واحـدة.. اثنتان.. ثلاث.. أربع...».

بـدأت أترنـح بين ذراعيه والدم يسـيل خطـاً أحمر على طرف شفتي السفلى.

توقف فجأة عن صفعي ومددني أرضاً....

– لا أشـعر بشـيء غيـر أنـي فقـدت السـيطرة. أيـاد تنال من جسـدي وأنا أفقد الإحسـاس؛ أنا مخدرة بألمي.. خلعت مسـامي وولجت منطقة اللاشـعور، أطلّ من نافذة وجعي علـى المـوت فـأرى خلاصـي هنـاك. للمـرة الأولى أرى الموت أكثر لطفاً من الحياة.

بالدم تخضبت روحي وفوق جلدي ألف مجزرة وأنا أتسـلل بسكوتي من وجودي إلى العدم..

أنا على الأرض ملقاة كعقب سيجارته المستلقي إلى جانبـي لكنـه يفوقنـي كرامـة. انحدر الدمع من عيني بيـن وجع وبين نكهة المرارة العالقة في روحي.

يبدو أن منظر الدموع وهي تغزو وجنتي قد عكر مزاجه فأطلق الكفـر علـى مسـمعي.. ركلني بكعب قدمه وخـرج مثل غول أنهى وجبته وأتخم، فمشى ينوء جسده بالمتعة المتكدسة في عروقه.

ها أنا أنتحب وأطلب الموت حثيثاً فليأتِ منقذاً مخلصاً.. أنا المنفية حيث لا تطالني أنامل الكون والمسوّرة بالصخب والضجيج فلا أسمع أنفاسي ولا أراني..

فليأتِ ذلك القدر الهادئ يجذبني إليه؛ يلف روحي في طياته ويمضي بـي..

تمر الساعات وأنا حيث أنا؛ يرهقني وجعي فأغفو..

أغفو لأصحو لا أريد الصحو..

أغفـو لأختفـي؛ لأنتهي.. لا أريد عودة من برزخي. لا أرتجي لهذه الحياة رجعة.

زنزانتـي الأنيقـة أشـبه بقبـر فرعونـي مبهر؛ لكنه قبـر وأنا جثة تتنفـس. تنهـش عقلـي ديـدان العـذاب بـلا توقف، تتفسـخ روحي وأتنفس. أستنشـق رائحة القهر النتنة وكأنني ميتة منذ شـهور رغم أنه لم ينقضِ إلا سـاعات على وأدي في هذا القصر المترف؛ ولا أزال على قيد الحياة.

أتمتـم لنفسـي حكمـة قرأتها ذات مرة كتبهـا وزير ما لملكه.. كانت تقول:

«هذا الوقت سيمضي..».

أرددها علّي أغفو وأصحو من هذا الكابوس.

تناهـى إلـى سـمعي صوت قهقهتـه، فمثله لا يضحك، مثله لا تلائمه ضحكة فحسـب. لا يليق به ضحكة بشـرية لا بد أن تكون مسـتعارة من جوف إبليس ليشـهقها ويضحكها ويملأ دويها زوايا المكان..

ها هو قادم.. فلأمُتْ الآن..

فلأتـلاشَ.. يـا رب الكائنـات، يا من أمره كـن فيكون. يا رب هبني ألاّ أكون، فلأندثر فتات روح بلا جسد... علّي أنجو من مقتلي

المكرر للمرة الثانية على التوالي والذي ما أماتني بعد..

ها قد اقترب أكثر ولا أزال ألفظ الأنفاس حية أُرزق، لا يزال قلبـي ينبض فأنا حية أُرهق..

لا تزال الدماء تضخ في عروقي وأنا حية أُزهق..

يفتـح البـاب ويقتـرب وأنـا أتصلب كحائط، ألتصـق بالحائط الذي خلفي أحسده لجموده وأسأله أن يخبئني..

أحفر في روحي ألف خندق وأختبئ في جوفها أهرب منه من خندق لخندق ويمسكني من شعري يجذبني إليه.. لا خنادق تقيني شـره حقـاً، والحائط يفضـح وجودي؛ يرفضنـي؛ يلفظني فتتلقفني ذراعاه بنهم...

وتبدأ رحلة الاحتضار لكني أبداً لا أموت..

– منى –

على مقعدين من الخشب أنهكتهما السنون حتى سرقت لون طلائهما؛ جلسنا.

كنتُ أصغي إليه بكل ذرة من جسدي. أشعر أني أروي ظمأً أزلياً تجذّر في روحي من قبل الوجود. كلما طال حديثه ارتويت. أصغي وأحبه إذا ما صدح الحب شعراً من بين شفتيه..

وأحبه وأصغي إذا ما خطب كشيخ على منبره.. وأحبه وأصغي إذا ما حاجج كفيلسوف بين مريديه. وأعجب كم ألف رجل يقطن في هذا الجسد!

نظر إلى عينيّ متأملاً ثم نطق بصوت أقرب ما يكون إلى الهمس:

– أحتاجكِ بقدر ما يحتاج هذا البلد إلى ثورة.

أجبته مقلدةً همسه:

– أتدعو للخروج على الوالي؟!

ضحكنا مثل مجنونين ثم استند بذقنه على ركبتي بعدما تخلى عن كرسيه ليفترش الأرض قبالتي. غرق في تأملاته فنكزته ليشاركني بها. رفع رأسه صوّب عينيه نحو الفراغ قائلاً:

– قد يقنع أحدهم بأن فكرة الخروج على الوالي حرام،

وفـي هـذا القـول طبعـاً قمـعٌ واضـحٌ للثورات فـي بلدان إسـلامية. ولنضـع ألـف خط تحـت كلمة إسـلامية. بينما نحن هنا ننسف فكرة أخرى لا تقل أهمية؛ بل تزيد. وهي أن الأديـان مـا كانت إلا ثورات.. ثورات حقيقية.. ثورات فكريـة؛ عقائديـة؛ اجتماعية. هدمت – وإن كان تدريجياً – كل أركان المجتمعات السابقة لها. لتعيد بناءها من جديد. في مجتمعنا يا منى أي خروج على أي والٍ هو حرام..

إذ يمكنك أن تكون إبليس بمجرد أن تقول «لا».. أو «لماذا». إبليس أنت إذاً إذا ما قاومت سلطة القطيع، إذا ما رفضتَ انسياقك. وإبليس أنت إذا ما فكرت أن تنسـلخ من جلدهم لتتنفس أسـئلتك بحثاً عن يقين..

قاطعته متمتمة:

– وما أبعد اليقين يا ريان..

– وما أشد يقيني بعينيكِ فحسب.. عيناكِ «الصبح إذا تنفس»..

– مرهقةٌ أنا بأسـئلتي يا ريان.. متعبةٌ من حملها. نازفةٌ تحت نصلها..

– السـؤال بغيـر ميقاتـه قد يحدّ مـن المعرفة. قد نحتاج قليلاً من الصبر أحياناً لتتكشـف لنا الأشـياء من تلقائها. ما أنهى رحلة موسـى مع الخضر سـوى سـبب واحد «لن تستطيع معي صبرا»...

خرجنا معاً من الجامعة؛ عبرنا شارع الكلية كمجنونين تأخذنا الأحاديث حيث لا نتوقع بينما نحن نمشي بكفين متشابكين.

لـم نكـد نصـل الرصيف حتى سـمعتُ صوته ينادي كشـيطان ينهض من الجحيم:

– منى...

تجمدتُ مكاني، وانحبس الصوت في جوفي. نزل من سيارته واقتـرب منـي، شـدني مـن ذراعـي بينما كان ريـان يراقب الموقف بذهول. وبينما كنت أصلي لو أنه يظل صامتاً ويغادر المشهد دون أن يمسّه أذى إذا به ينطق:

– ريان الدوري..

لفظ اسمه بينما هو يسحب كفه من يدي ليمدها باتجاه مرهف الذي تجاهل وجوده وظل قابضاً على ذراعي بكل ما أوتي من لؤم. جذبني نحوه بحركة خاطفة؛ مدّ يده الأخرى إلى حزامه، قبض على مسدسـه ووجهـه نحـو ريان بينما أنا أموت رعبـاً. كفّ ريان بيضاء من كل سـوء ممدودة نحو مرهف؛ بينما مرهف يمدّ مسدسـه نحو ريان يصافحه بفوهته.

– أعرفك.. أعرفك جيداً.

ثـم يمضـي وهـو يجرنـي إلى جانبـه. يقف لحظـة، ثم يلتفت صوب ريان:

– ستتمنى لو أني لم أعرفك يوماً.. هذا وعد.

– ليلى –

جالـت عينـاي فـي أطـراف الغرفـة، لم أكن أبحث عن سـبيل للخلاص. كنت أبحث عن طريقة لإتمام هلاكي على أكمل وجه..

نصـف موتـي هذا أكثـر وجعاً من موت مكتمل الأركان؛ أريد اكتماله.

وجودي المبتور؛ روحي المنحورة والتي لا تزال تقطر الحياة منهـا كخيـط دم منسـكب مـن عنق شـاة لم يشـحذوا السـكين قبل ذبحها، وتركوها تموت بتأنٍّ.. ميتةَ القهر بألف ميتة.

تطوف نظراتي في زوايا المكان بحثاً عن خلاص. عن القطعة الأخيرة من «بزل» الموت المنقوص...

يقع نظري على مكتبة صغيرة تستند إلى كتف الحائط، اكتظت بالكتب. لمَ تراه يقتني مكتبة!!

هذا الكائن البدائي الذي لا يفقه في الكون إلا منهج شهواته وكيفية إشباعها!!

منظـر الكتـب المتراصـة بانتظـام يذكرني بصاحـب المعرض ذاك، والذي اشترك أيضاً بقتلي. تلطخت يداه اللتان انشغلتا بترتيب الكتـب وصفهـا؛ تلطخـت بدمـي.. صوتـه الذي قـذف بـي خارج الشادر قبل موعدنا بعشر دقائق؛ صوته أيضاً شريكٌ باغتصابـي..

حتى المطر الذي أقحل الطرق من أي بشري في تلك الساعة من النهار؛ المطر ساقني إلى حتفي مع كل تلك الأيادي.. دقائق ساعتك المتأخرة عن مواكبة دقائقي؛ هي أيضاً سفكت دمي على رصيف الانتظار..

أنا المقتولة الوحيدة.. ومثلي كُثر..

وكلكم قتَلة.. كلكم آثمون..

فلتحل عليكم لعنة جسدي المستباح.. أجمعين..

أتحسس مسامي المتعرقة.. مسامي التي نثرتَ أمنياتك على متنها وكنت تترقب قطافها.

أرفع بأصابع راجفة خُصل شعري المتناثرة فوق عيني. شعري الذي تركته طويلاً طويلاً مثل حلمي؛ ليدثرك ذات حب.

أتفحص معالم الجريمة فوق ملامح جسدي. قوامي الذي طالما أثملتك انحناءاته وأذهبت لبك تضاريسه المحفورة «بدقة» كما كنت تصفها..

وهنا ما بعد عنقي خبأت لك شهقتين من الأنوثة وموسم من التوت كنزته لأناملك.. لكن!!!

أمرر كفي فوق كل شبر أضمرته لك.. لك أنت.

مغارتي التي نذرتها لاسمك ومنحتك كلمة سرها.. كيف سبقك الحرامي إليها ليفتحها؛ يعبرها وينبش كنوزها التي لم تكن يوماً إلا لك.. لك وحدك.

– ليلى –

لملمت خيبتي وملابسي المنثورة في أرجاء المكان. أحاول ستر هذا الجسد المهدور ستره؛ المنتهكة حرمته.. أضيع بين ثنايا قميصي، انكمش تحته بهدوء.

لا دموع ولا إحساس؛ لا صوت ولا صمت. هو صخب المعارك الدائرة في عمق روحي..

كتلة ذنوب لم أرتكبها لكنها ركبتني وارتكبتني، فلبست جسدي المبتلى والبالي ولبست فوقه قميصي.. خبأت تقيحات الشرف تحت معطفي الأسود..

حجابي كان أبيض خشيت أن تغتال قطرات المطر نصاعته ذات وقت. أراه تخضب بالقهر الآن يقطر دماً. دمي المسفوح؛ عذريتي المستباحة... أخاله يبكيني.

لا شيء تغير في تفاصيل هندامي إلا أنني أنا التي صرت أبصر ما وراء الوجود. ما وراء أنسجة الأقمشة وأنسجة المجتمع وأنسجة السلطة..

وقفت أرتديني من جديد؛ أدس روحي في ما تبقى من جسد. أرفعني من أرض الجريمة في هذه الغرفة التي رحت أحدق إلى تفاصيلها قبل مغادرتها وكأنني أؤرشف ملامح الواقعة؛ دقائق

الأمور أخزنها في ذاكرتي. ليحل سخطي على هذه السجادة الحمراء التي كانت تخدش مسامي وتحفر العار في ظهري وأنا أرزح تحت ثقل الاعتداء. تلك السجادة التي تخضبت بدمي، فتشربته وكأنها تخفي معالم الجريمة.

لتصل لعناتي على ذلك الكنب العملاق الذي كان يستلقي ساناداً ظهره العريض المرتفع إلى الحائط بينما يتابع مشهد موتي بانسجام تام، ولم يفكر بنجدتي!

أمر بنظري على ذرات الغبار المتراكم على حافة النافذة والتي ما هرعت كزوبعة لإنقاذي من براثن الوحش، فألعنها وأتابع تحديقي في ساحة الموت.

كان يقف على باب الغرفة ينتظرني بصبره النافد. نهرني عدة مرات لكني حتى لم ألتفت إليه، أخيراً صاح وهو يدفع بي خارج الغرفة:

«خلصينا.. إلى متى سأظل أنتظر حضرتك!!».

.....

وانشـقَّ القمر..

البحر..

تجربة الكون الأولى للبكاء

كل هذا الملح.. ندم البداية..

– ليلى –

ذات اليد التي ألقتني على كرسي في سيارة المرسيدس السوداء لألقى قدري. ذاتها تدسني الآن بعد ساعات من ذلك القدر في سيارة أقل فخامة من سابقتها لتمضي بي حيث لا أدري مجدداً.

كنت أراقب الطريق بعينين متحجرتين وجسد مرتعد. أراقب انحناءات السيارة من شارع إلى آخر؛ أحاول أن استكشف ملامح الأمكنة علّي أعرف وجهته. أراه يسلك طريق البحر؛ حيث كان يُفترض أن نكون أنا وأنت وثالثنا البحر.

توقفت السيارة على الشاطئ. عادت تلك اليد لتجرني ولكن هذه المرة طرحتني أرضاً وغابت بعيداً عني بعد أن أتمت مهمتها على أكمل وجه.

هي يد الإثم تقطف الحياة ومن ثم تعود لترميها كبقايا وجود. ثمان وأربعون ساعة أو أكثر بقليل.. مرت بين أول مرة جذبتني هذه اليد السوداء وآخر مرة ألقتني فيها على رمل الشاطئ..

لكن تلك الساعات بطول عمر أو يزيد. بحمل سنين من القهر ووجع موت، بل أكثر..

هي ساعات حسب توقيت الوجع لكنها قرون حسب تقويم الإنسانية. عادت بي حتى عصور ما قبل الإحساس..

قلبت تاريخ وجودي، سلبتني أنت.. سلبتني منك.. سُرقت مني فلم أعد أعرف نفسي..

أنا أمام البحر حيث كان يجب أن يكون لقاؤنا، والسماء ما زالت تذرف الدمع. عرفت الآن أنها كانت تبكيني منذ أيام، تنوح لقدري المتجهم. لقدري المنتظر أمام بوابة الكلية قبل موعدنا بعشر دقائق. حيث أبدلت موعداً غير موعدي وكابوساً لا يشابه أحلامي..

السماء بثوب الحداد وأنا النعش، أنا المذبوحة وأنا الكفن..

ظلام يحيطني وموج يناديني. تعالي هنا واغتسلي من هذا الاثم الذي التصق بجسدك.

اقترب من الماء مترنحة بخطوات منهكة وروح تدنو من التلاشي.

خطوة فوق الرمل وخطوة فوق الجرح. أقترب من البحر وأترك الموج يلطمني على وجهي. يخترق الملح جفني ويتسلل اللهيب من أهدابي ليلتقي بجحيم جوفي، فأشتعل قهراً.

جمرة مشتعلة أنا في حضن اليم؛ أنا عروس الجحيم..

حورية البحر المذبوحة ترقص ألماً.. يجلدني الموت ألف جلدة وأُرجم بالحصى؛ بالرمل؛ بالصدف.. لأني كنت أضعف من أن أقاوم، وأقوى من أن أموت!!...

أتوضأ بملح البحر لأصلي عليّ؛ صلاة الغائب.

وأعود لأتوضأ من رجس يغزو أنفاسي، وأصلي لدمعي صلاة استسقاء.

ها أنا في غياهب البحر ألقي نفسي فليلتقمني حوت لا يلفظني

أبداً، فلتفتك بـي أسماك القرش، فليمضغني هذا الموج على مهل وليكن هذا اليم لحدي..

خيـرٌ مـن بشـر يلوكـون لحمي ويبصقـون المواعـظ في وجه مأساتي.

– منى –

– كيف يمكن للغياب أن يكون أعظم أثراً من الحضور؟!

كان يحتلني يوماً بعد يوم بحضوره الطاغي ما كنتُ أعلم حينها أن غيابه أشد طغياناً، وأنني سأرفع راية استسلامي في غيابه لأعلن لـه وللكـون أجمـع أنـي محتلـةً.. لا حول لي دونـه ولا قوة لي في بعده..

أقف على حافة العالم.. على حافة الأشياء والوجود.. لا أكاد حتى أن أكونني في هذا الوقت من الغياب. أتحسّس الوجع الذي يكبر في جوفي وينمو في أحشـائي. يكبر أكثر؛ يبتلعني. يكبر بـي وأكبر به؛ يصير عالماً بكلّ تفاصيله. أعيش فيه وحدي؛ أراقب الأيام كيف تركض وكيف يهرم الغياب وتشـيخ ملامحه. بينما أنا أنتظر؛ أنتظر أي شـيء يبثني طمأنينة ويطفئ احتراقي حتى لو كان صوت تلـك المـرأة الآتـي في نهاية رنين متواصل لكن حتى ذلك الصوت تبـدّل. الآن كلمـا حاولـت الاتصال به يؤكـد لي المجيب الآلي أن الرقـم المطلـوب خارج نطاق التغطيـة أو مغلق. يومان وأنا أفترش قلقي وأحاول أن أغفو..

كنتُ أنتظر مرهف في البداية، أنتظره لأنال نصيبـي من غضبه لكني علمتُ من أمي أنه سافر إلى لبنان مجدداً. أصغي جيداً لنبرة

أمي فأعرف أنها لا تعلم شيئاً.

أعاود الاتصال بريان. أصلي كثيراً صلاتي التي لا تشبه صلاة أحدهم. وأغفو مثل عطشى أنهكها التيه؛ أحلم بالماء.. أهذي بوجه ريان؛ بعطره. أشكو له وجع شكوكي؛ يباركني مثل قديس ويهمس: «إذا توقف الشـك.. توقف السـؤال.. وإذا توقف السـؤال تضاءلت المعرفة. الشكّ أعظم من اليقين..».

ثم يخطفه السراب..

– منى –

– لـم ننـم.. ليـل اللاذقيـة يبدو موتوراً. أشـعر بهـذه المدينة وكأنهـا تحـاول أن تـداري فضيحتهـا بينما أجنـة العار في رحمها تكبر. تركلها بجنون وبطش، وتدنسها كلما حاولت أن تتطهّر.

الرصـاص لـم يهدأ الليلة؛ نوبة جنون مسـعورة تنتاب أحدهم ولا يدفـع ثمـن هـذا الجنـون إلا كل من سـوّلت له نفسـه أن يقطن هذي الغابة ويشارك الذئاب محميتهم.

انقطع التيار الكهربائي فجأة وظلّ الرصاص يزعق في سـماء العتم بغير تعب.

المعلـم يمـارس جنونـه بصوت مرتفع والـكل يصغي. أبواق السـيارات تتكاثـف فـي الخارج فراملها تمـارس رقصة طيش فوق إسفلت شارعنا. لا أحد يجرؤ أن يطل برأسه ليستطلع الأمر. نوبة أنين تصيب مجد بينما أمي تشعل سيجارتها من لهيب شمعة ضئيل يتراقص ظله على الحائط حيث يتكور أبـي في فراشه متجاهلاً كل ما يسـمع. يحاول أن يتابع غفوة يقطّع أواصرها صوت الرصاص كل حيـن. نجلـس حول الشـمعة جميعنا نشـكّل دائـرة من الوجوه الواجمـة نتابـع رقصة الضـوء على كاهل حائط مظلم. بينما يقترب

الفجر شـيئاً فشـيئاً. يمدّ أصابعه في عبّ السـماء ليهتك ستر العتم، وتنطفئ الأصوات مع دنوه. أخيراً يزحف كلٌّ منا نحو فراشـه وقد هدّه النعاس. إلا أن بضع طرقات على باب البيت كانت كفيلة بطرد النوم مجدداً من أعيننا.. كان رائد.

يشتعل البيت بصخب سكره:

– جبت كم قنينة عرق بيستاهلو السهرة.

ضحكـت أمي.. بكت سـلمى. بينمـا لهثت فرح نحو المطبخ تحضر المازا والكؤوس.

وصوت رائد يصدح في منزلنا الذي لا حُرمة له «هاتي كاس الراح واسقيني الأقداح».

تصفق أمي لنشازه وتنتحب سلمى..

إذاً لا يهم من تحظى برائد؛ لا فرق إن كانت سـلمى أو فرح كل ما يهم ألاّ نفرّط بعريس مثله. يكفي اسـم عائلته الذي سـيصير جـواز عبـور جديد لأمي تضيفه لأسـماء إخوانها الذين تغلغلوا في أفرع الأمن وداسـوا الأمان تحت بسـاطيرهم. هذا كلّ ما يعنيها من الأمر. وبما أن سـلمى فشـلت في المحافظة على العريس فلا مانع لدى كونة أن تشارك في عقابها وتبارك فوز فرح برائد.

بحثـتُ بنظراتـي عـن سـلمى وجدتها في زاويـة غرفتنا خبأت رأسـها بيـن كفيهـا وراحت تنتحب. عـرف رائد كيف يجعل انتقامه وسخاً وموجعاً..

اقتربت منها أسندتُ رأسي إلى كتفها وشاركتها النحيب بكامل

جزعـي أنـا التـي لا أحد يبصر الفراغ المتكاثر في صدري بعدما قُدّ فؤادي..

مجد يئن في فراشه.. البقية غارقون بنومهم.

أما أبـي فأراه بعين قلبـي يدسّ رأسـه تحت الوسـادة ويختبئ بصمت.

– ليلى –

– أنا أعرف هذه الحكايا جيداً وأعرف أن الضحية فيها تكون دائماً مذنبة، وأن القصاص يُطبق دائماً على رقاب النعاج اللينة.

أعرف هذه الحكايا بكل أشكالها حيث الجاني يفرّ من قبضة السيّاف أو أنه يُمنح صك غفران يمحو ما تقدم من ذنبه وما تأخر حتى ينسى الجميع ذكره. أما الضحية فيُكتب اسمها بأحرف من نار ليظل متقداً في ذواكر القبيلة.

أعرف هذه القصص؛ من حكايا «أبو طاقة» حتى حكايا البئر التي امتلأت بأجساد العاشقات.. مروراً بعصر الوأد الحديث والسكاكين المركونة على رفوف الشرف الزائف والتي تُوّرث جيلاً بعد جيل.

أنا هنا حيث لا يجب أن أكون؛ حيث يجب ألاّ أكون أصلاً. حيث ينبغي أن تنتهي كينونتي، أراني ما زلتْ!! كيف وصلت إلى قلب هذا التكسي سمكة تتمسك بأنفاسها خارجةً للتو من غرقها من على رصيف بحري في مساء شتوي كئيب كموسم جنائز.

أنزف الماء من كل أطرافي، ألوّح بآلية التنفس؛ بآلية بقايا الحياة المتشبثة بهذا الجسد. ألوّح لتلك السيارة الصفراء، تقف

علـى بعـد ثـلاث خطوات. أمشـي إليها؛ أرفع قدمـاً؛ تتدحرج منها صدفةٌ عالقة بثنية البنطال.

أثبت القدم الأخرى بصعوبة لأرتكز على الأرض. أرفع قدمي ثانية في محاولة للسـير تتسـاقط كومة رمل مني. آخر خطوة لأصل حتى باب التكسي؛ أرفع جسدي لأركب أسقط أنا؛ كنت عالقة بـي! أنفض جسمي مني علّي أنتهي هنا..

يقاطع احتضاري صوت سـائق نزق سـربت البرد إلى سـيارته وأنا أقف أمام بابها أحاول التخلص مني بكل جنون..

«ناوية تركبـي ولا أمشي؟!!».

أُسقط جسدي فوق المقعد بكامل صمتي؛ أشد الباب بقبضتي وأغرق في هذا الدفء المفرط الذي ذكرني بأطرافي المتجمدة.

«وبعدين.. يمين ولا شمال؟!!».

يصيح بـي ذلك الشوفير بعد أن استفزه صمتي وضياعي الذي ورطته فيه حتى جال بـي نصف شوارع المدينة. يدور ويدور حول نفسه وأنا أدخله في متاهاتي..

لم أكن أملك إجابة، أين أمضي؟!

لفظني البحر ولم يقبل أن يتركني نائمة في قاعه..

أأعود لأشـركهم في كارثتي..؟! أم أتركهم يتخبطون غارقين بقلقهـم ويبحثـون عـن وجهـي بيـن وجـوه المدهوسـين وقوائـم المجهولين في مشافي الوطن..

نفد صبر العجوز الذي تحمل ضياعي طويلاً والوقت ما عاد بصالحـي. فالليـل أكثـر حلكة من قلبـي وعواء الذئاب سـيعلو بعد

قليل ثم تنتشر الكلاب الشاردة تتلقف أية فريسة لتنهشها..

لا بـد لـي إذاً أن أكتفـي بمـا نـال هذا الجسـد، لا خيار لي إلا العودة..

لنتشارك كأفراد عائلة مثالية.. نتشارك معاً الكارثة..

أهمس أخيراً للشوفير:

«حي الصليبة»..

.....

– ليلى –

على مائدة المصيبة، جلس الجميع حولي. أنا اليوم «وليمة لأعشاب البحر» وليمة لغيلان البر.. وليمة للحزن؛ للعار؛ للقهر.

أبي يستنطقني، يثور ويهوي على جسدي المتبلد بكفه، وأنا.. أنا الصمت المطلق.

الدمع آخر ملامحي الإنسانية؛ تتفجر عيناي دمعاً ودماً..

ليث يضرب رأسه بالحائط يطلق الشتائم على هذه المدينة الملعونة:

- «قلت لك ألف مرة يجب أن نرحل من فوضى هذه المدينة.. ألف مرة قلت لك.. لا قانون يقف بوجه أصحاب القانون.. لكنك كل مرة لا تملك إلا إجابة واحدة (شو البلد سايبة!!)..».
- يصيح ليث بوجه أبي وقد احمرّ وجهه وتطاير الشرر والشر من أوداجه؛ من عينيه؛ من تفاصيل جسده.. يطل من مسامه ثعبان الغضب يمد لسانه لينفث سمه في وجوهنا نحن الثلاثة.. أنا؛ أمي وأبي.. لينفجر أخيراً بوجه أبي: «شرّف طلعت البلد سايبة.. إي سايبة...».

لم أنبس ببنت شفة لكن ليث حلّ اللغز حسب المعطيات

لـم يكـن الأمـر صعـب التخميـن.. بعـد كل الحكايـا التـي تحكى بيـن الأزقـة.. بعـد تلك القصـص التي حفظتها الحـواري وجدران البيـوت.. عـن غيـلان من عائلة الغول الأكبر.. أولئك الذين مشـوا فوق القانون فدهسوه.. الذين ينتقون الجواري من الساحات العامة والأسواق.. من المطاعم، من الأرصفة، من الشرفات..

لـم يكـن أبـداً مـن الصعـب تخميـن الكارثـة، فقد بـدت في ملامحـي مثـل عين الشـمس واضحة.. في الكدمـات التي خدرت جسـدي والتـي أبصروهـا كبرهان دامغ أمام أعينهم، عندما شـدني أبـي مـن حجابـي ورمى بـي أرضـاً علّي أخرج من صمتي.. لكن حينها هو من لجمه الصمت..

– منى –

قـرب البـاب.. أم صالـح علـى كرسـيها البلاسـتيكي.. تدس أصابعها في باكيت «الحمرا الطويلة» تنتبه لمروري تتفل عن شمالها باشمئزاز.. تقول مخاطبة أمي.. «الله يحمل معك يا كونة... ستة.. ستة!!!

الحمد لله يلي قبرتا وخلصت من نجاستها...».

تسـمعها أمي وكأنها لا تسـمعها.. بينما تبدأ أم صالح بسـرد حكايتها للمرة الألف.. الحكاية التي انتقلت على أثرها من قريتها الصغيـرة إلـى المدينـة بعد أن دسـت هناك ابنتها فـي قبر صغير بلا شاهدة.. كعار أخير دفنته تحت الأرض وهربت..

كانت جميلة كشـمس في نيسـان.. لكن جمالها هذا لم يكن إلا لعنة على حد تعبير أم صالح...

تكاثرت الأقاويل بشأنها إلى أن ضبطها صالح متلبسة في غرفة الاستقبال في منزلهم ذات ليلة بصحبة صديقه المقرب..

لم تنفعها حينها كل محاولاتها لإثبات حسن النية وكل الأدلة المنطقية التي حاول الاثنان سوقها لإثبات براءتهما من سفك شرف العائلـة.. وحيـن تدخـل كبار القرية قـرروا أن يتركوا الحكم لـ «أبو طاقة»...

نافـذة صغيـرة محفـورة فـي صدر حائط وطـيء.. الحائط هو جزء من سـور قديم لمقام ولي اندثر اسـمه مع الزمن ليعرف فيما بعد بـ«بو طاقة»...

تُـدَس الأنثـى في هـذه النافذة وهكذا دسـت بنت أم صالح.. ويُنتظـر مـن الولـي المتدثـر بترابـه منذ عقـود.. يُنتظر منـه أن ينطق بالحكـم.. إن عبـر جسـد الصبيـة مـن الطاقة أطلقت نسـاء عائلتها الزغاريـد احتفـالا ببراءتهـا.. وإن علقت كطريدة في مصيدة النافذة وهـذا كان حـال بنـت أم صالح.. التي أطبقت النافذة أسـنانها على جسدها مثبة وفق شريعتهم خطيئتها...

أدينت ثم نفّذ الحكم بغير تروٍّ.. أردوها جثة هامدة.. أمام مقام الولي.. دسوها في حلق التراب قبراً بلا معالم..

وفرّوا بعارهم نحو المدينة..

.....

تتكاثـر الأيـام.. أحصيها كمن يحصي أيامه الأخيرة في الحياة ورغبة الموت تنمو في أحشائي كجحيم صغير..

أدخّن.. أصلي.. أثمل.. أضيع..

مرهف ما زال يمارس اختفاءه طوعاً في لبنان يمارس مجونه. سـافر بعـد أن أطلـق رجالـه كلابـاً مسـعورة نحو ريـان أخذوه مني وتركوني ثكلى على أهبة الموت.

تكتمـل عـدة الغيـاب بينمـا أمـي تكمـل تجهيـزات الزفاف غيـر آبهـة بفجيعـة سـلمى. أراقبها بعينين تورمتا مـن ثقل الدمع. أكاد أشـك بانتمائنا لها؛ هل حملتنا تلك الرحم؟! كيف والرحم

رحمـة؟! كيـف تحمـل كل هـذا الجبروت فـي روحها ولا ترأف بأجنة بطنها؟!!

كنتُ بحاجة إلى أي شعور يربطني بـ«هنا». أي إحساس يُبقي الأمور معلقة.

كان لا بـد أن نتبـادل شـعوراً مـا لنبقى مرئييـن بعضنا لبعض. ولمـا كان لا مجـال للحـب الفطري أو حتى للحنان كرابطة طبيعية بين أم وابنتها ظلّ الحقد فقط حبلاً معقوداً بيننا. لا أحد يعرف متى ولِمَ – تحديداً – تبادلناه.

تنزف سـلمى الحياة تماماً كما أنزفها. نتشـارك الدمع والثمالة بينمـا مجـد فـي ركنه الأقرب يئن لنحيبنا كلّ حين. أما بقية الأسـرة فتتجاهلنـا تمامـاً كمـا لو أننا الفـراغ. يغرقون في تفاصيل الفرح مع فرح.. وأمي..

أهـرب إلـى الجامعـة؛ أتـرك خوائـي فـوق أوراق الامتحـان وأخرج. أبحث عن بارقة يمكن أن توصلني إلى خبر صغير يخفف وطأة الغياب.

أفتقـد ليلـى.. فأجـزم أنهـا الأخـرى غارقـة في عشـقها ترتّب تفاصيـل زفافهـا، وكأنمـا الكـون يحاصرني بالفـرح من كل صوب غير آبه لقلبـي المنفطر والقلق الذي يمتص دمي مثل خفاش صغير يرضع طمأنينتي.

أجلس في الركن القصي من الكلية. وحدي أنا والشتاء؛ أنفث سيجارتي في وجوه العابرين. ألعن استهجانهم وأتمتم: «سأكونني.. كما علمتَني تماماً».

أصلّي كما لا يصلي أحد. أستحضر كل الحب الذي في روحي وأصلي..

«يا ربَّ العاشقين هبني صوته طمأنينة.. هبه رحمتك برداً وسلاماً».

– ليلى –

أصوات تهمس؛ ثم تستحيل صراخاً يرتفع..

وأنا كأنني أضعت سر اللغة؛ سقطت الأحرف من معانيها فما عدت أستوعب الكلمات..

من الزجاج المستطيل والمحجر الذي يرتكز في منتصف باب خشبي يقف بيني وبين أصواتهم التي تتفاوت خارج غرفتي.

كنت ألمح خيالات تقف تارة وتجلس أخرى. تمشي حيث لا تبتعد خطوة وتعود لتظهر على زجاجي الذي غدا مثل كرة سحرية تنقل لي ما غبت عنه..

لكنني كنت خارج حدود الوعي، فلم أكن لآبه لكل تلك الأطياف المارة أمام ناظري.

فُتح باب الغرفة ليدخل ليث وأبي بصحبتهم الدكتورة «هالة» إحدى قريباتنا المقربات.

جاؤوا بها هنا ليطمئنوا على جثتي، لم يفكروا أبداً بنقلي إلى المشفى.

فلا بد من ستر عورة مقتلي تفادياً للشوشرة في مدينة اعتادت الضحايا فيها أن يمتن بصمت، وأن تُغسل جراحهن بماء البحر سراً وأن تعاقب الموءودة لأنها بغير ذنب وُئدت...

هـي ثـوان وتبعتهـم أمي بملامح أقرب للموت.. شـاحبة مثل روحي.. وأظن أن حواسـها شـابهت حواسـي بالتلاشـي في تلك اللحظة..

«هلا تركتمونا لوحدنا؟!» قالت الدكتورة موجهة كلامها لأبـي وليث. لكن الأخير لم يتحرك سنتيمتراً واحداً من مكانه مركزاً نظره على جسدي؛ حتى أحسست النار استعرت في إهابـي.

نكزه أبـي وجذبه من ساعده ليخرجه إلى الصالة ويغلق الباب خلفهما..

لم تكد الدكتورة أن تلامس بيديها جسـدي حتى كشـفتْ لها عن أنيابها تلك الروح الشريرة التي سكنتني حينها؛ رحتُ أضربها بجنون..

«أبعدوا أيديكم عني..

أعتقوني.. أعتقوني.. لقد اكتفيت...».

كنـت أصـرخ بوجهها وبوجه أمي التي حاولت بقواها الخائرة أن تهدئ من روعي لكن دون فائدة..

«لم يبقَ إلا الدفن.. أكرموني لآخر مرة.. وسارعوا في دفني.. لم يبقَ إلا الدفن...».

أمسكت الدكتورة بقدمي بقوة ثبتت ضعف أوصابـي المنهكة، وأمي سـاندتها وهي تشـد على أطرافي بإحكام رغم أنها كانت لا تزال في غيبوبتها لكنها كانت تجاهد لتبدو متيقظة..

خارت قواي؛ أتعبني الصراخ. كأنني أصرخ منذ أعوام في بئر خيباتي الذي كان بلا قاع..

رغم صمتي المرير مذ لحظة استباحتي الأولى، لكن صوتي كان متعباً وجسدي على وشك التخلي عني...

همدتُ فأرخت أمي قبضتها عن معصمي. تفقدت الدكتورة معالم جسمي البالي بعد الإعصار الذي اكتسحه..

«ستكون بخير إن شاء الله..» قالت الدكتورة وهي تحاول أن تتجنب النظر في عيني أمي الغائرتين في هاوية الحزن..

«سأكتب لها بعض الفيتامينات لتساعدها على التعافي بشكل أسرع.. وحبوب مهدئة أتمنى ألا تحتاجها.. لكن إذا استدعى الأمر...».

هزت أمي الثكلى بي رأسها المثقل بهول المُصاب؛ هزته بصعوبة بالغة فالحمل الذي هبط عليه ثقيلٌ.. ثقيل..

وانسحبت وراء الدكتورة بهدوء خارج الغرفة بينما كانت الأخيرة تكمل وصفة الأدوية التي يجب أن أتجرعها حتى أنجو..

إذاً رغم كل أعراض الموت الواضحة والجلية هي بضعة فيتامينات سحرية ستعيدني إلى الحياة..

لا مراسم دفن ولا تراب فوق وجهي الموءود. أتلمس تفاصيله بحثاً عن ذرة تراب واحدة لأتأكد.. لأتأقلم مع وأدي وأنا أتنفس ببلاهة؛ لا تراب ولا حياة..

إذاً أنا الجثة التي ستتناول الفيتامينات بانتظام فتدب الحياة في جنبيها من جديد، وحين تصحو وتستوعب مأساتها التي لن تفلح المقويات باجتثاثها من جسده. حينها سيقذفون قرص المهدئ في فمها عنوة لتعود إلى موتها بهدوء..

– منى –

– هذيـان مجـد صـار روتيناً ليلياً. يصحـو محموماً يئن بألم؛ يرفـع جسـده بـاذلاً جهـداً عظيمـاً رافضاً يـدي الممدودة لمساعدته.

يرتجف.. يصرخ بنبرة موجوعة كلما اقتربت منه، يلوّح بكفه رافضـاً اقترابـي. وقـد يغطـي وجهه بمرفقه بادئاً نشـيجاً موجعاً قد أشاركه بعض مراسمه.

يتعثّر فيما يشقّ طريقه بين الأفواه المكدّسة فوق أرض الغرفة. يقف مترنحاً قليلاً ثم يتابع أنينه ريثما يصل الحمام. يغيب جسـده هناك ولا تغيب شهقاته. يضرب الباب بقبضته محاولاً لفظ اسمي؛ أركـض نحـوه. يفتح الباب مدارياً جسـده العاري خلفه ويشـير لي بأصابـع متشـنجة؛ يشـير إلـى عريه فأفهـم غايته. أجلـب الملابس وأعـود بهـا إليـه، فـلا يلبث أن يغلق باب الحمـام في وجهي متابعاً أناته التي لا تخبو.

قـد تصحـو أمـي أحيانـاً على صوته بينما هـو يختلج في ركنه رافضاً أن يمسـه أحدنا. تضحك كثيراً ثم تعلق بجملة باردة «صار زلمة هالـ...».

تتابع ضحكها ثم تغادر الغرفة وكأن الأمر لا يعنيها. أحاول أن

أربت على كتف مجد؛ أخفف وطأة توتره فلا أكاد أدنو منه يرتفع نشيجه ويزداد تشنجه. أراقب جسده الذي يعذبه. جسد رجل وعقل طفل؛ يا الله كيف له أن يحمل كل هذا الألم؟!

ألـم الرغبـة التـي لا تُلبّـى ولا تُحكـى. الرغبة التي تنهشـه فلا يسـتطيع أن يفهمها. في الصباح يصحو مجد وكأنه شـخص آخر. أعانقه بينما هو يبتسم ويتمتم اسمي بصعوبة.

– مم.. ممم.. منى.. أأأ.. أنا حب منى.

أقبل خده وأهمس له:

– وأنا أحبك كثيراً..

.....

أفتـح عينـي.. أمـد يدي المرتعشـة كمـا دائماً نحـو الجوال.. أحملـق إليـه محاولة إزالة غشـاوة النوم عـن عيني.. لا أثر له اليوم أيضا..

أرفـع رأسـي كمـن يحمـل الكـون كلـه فـي جمجمـة صغيرة ومرهقة..

مثقلة بكل التفاصيل التي قضيت ليلة أمس أرصدها..

كل التفاصيل التي مرت بيننا وكل التفاصيل التي لم تمر..

التفاصيل التي لا ترحم..

التفاصيـل التـي تتوغـل فـي حنايـا أرواحنا تختبئ فـي الزوايا المعتمة والسراديب السرية.. تغيب هناك.. كمين ينتظر إشارة البدء، ثـم تنتشـر مثـل كتيبة من الجنود المدربين لإثـارة أوجاع لا ترممها دموع ولا يطفئها تجاهل...

التفاصيل التي تحيلك إلى كائن حي يتغذى على أعصابك آلاف الصور المحنطة في ذاكرة.. تمتص دمك وتركيزك..

تمشي على قدمين من وهن.. تكاد تسقط عند أول تشابه يرميك به الواقع تحت مسمى صدفة..

أصحو.. ألوح لصورة المرأة المنعكسة في المرآة عن بعد أحمل كتبي للتمويه. أجتاز الصالة.. لأصل إلى باب البيت أشرعه..

أمد رأسي، أم صالح في مكانها المألوف على كرسيها المتعب..

تشرب القهوة وتمج سيجارة «حمرا طويلة» تتلقف وجهي على الفور.. ترمقني بنظراتها التي لم تتغير يوماً..

تتمتم.. لا أسمعها لكنني أجزم أنها تردد جملتها المعتادة «يلعن هالجنس.. عاطل»...

أعبرها.. لا أعيرها اهتماماً.. وأركز بإحصاء تفاصيله..

أقرر أن أتجه فوراً نحو ساحة الشيخ ضاهر ومن هناك أقرر إن كنت سأكرر تيهي اليائس في حي الصليبة بحثاً عن أي خيط قد يوصلني إليه.. إلى أهله.. عائلته الصغيرة..

أصل ساحة الشيخ ضاهر.. قدماي تحملانني بصعوبة والعطش يتجذر في حنجرتي.. بينما الغيم يتكدس في قبة السماء خالقاً لها حزنها الخاص... أخرج الهاتف أراقب صمته..

لا أحد يطرق أبواب وحدتي.. وحدي كما لم أكن من قبل..

حين أقرر أن أتابع ضياعي نحو الصليبة أفكر بليلى.. ابتلعها طوفان الغياب.. أيضاً!!

أُخذت بصدمة اختفاء ريان فلم استشعر مدة غياب ليلى. لم يسبق أن طال أمد الصمت بيننا إلى هذا الحد.. أرقني غيابها خاصة وأنها تعرف مقدار احتياجي ليقينها الآن تحديدا لأسند إليه حمل تيهي.. أقف في منتصف الطريق أراقب المكان من حولي أتأمله ثم أنفك عن نفسي أشعر وكأنني أتأمل وجه الغياب..

أتحسس مسامه الرطبة دوماً وعيناه الشاخصتان في المدى.. يركز نظره في بقعة ما لعله يترصد وجهاً جديدا ليبتلعه.. لا فم لديه فالجزء السفلي من وجهه ما هو إلا هاوية سحيقة.. يلتهمها العتم ويتردد منها صدى لأنين لا يخفت..

أرفع رأسي قليلاً.. هرباً من هاويته..

أواصل المشي بخطوات بطيئة وشاردة.. أكف عن التحديق إلى الوجوه بعدما صار الأمر محض عبث.. أقيس خطواتي.. أراقب موطئ قدمي.. أركز بانحراف ظلي الساطع رغم انحسار الشمس خلف أسوار الغيوم..

أمشي.. أمشي.. أمشي... إلى لا لقاء!!

– ليلى –

تكررت زيارات الدكتورة هالة يوماً بعد يوم..

أما اليوم فما إن غادرت الغرفة مع أمي، حتى عادت أمي بعد لحظات بصحبة خالتي..

كل هذه الأيام وأنتما تختفيان خلف ستار الصمت والغياب. كأنكما تخشيان الاقتراب من وجه الحقيقة المفزع.

حين التقت نظراتي بنظراتها عدت إلى جنوني، عادت تلك الروح الشريرة تصرخ بصوتي وتلكم بيدي وتمشي بقدمي.

نهضت عن السرير بنوبة الجنون الثانية والتي كانت أشد وأقوى من سابقتها.

فلم أكن أريد لكارثتي أن تبدو «علامة قرمزية»* يمر بها العالم ليرمقوها بنظرات الشفقة الممزوجة بالريبة والخوف.

لم أكن أريد أن تأكل جسدي العيون التي تذرف الدمع لأشعر به كحجارة ترجمني.

أنا الآثمة بضعفي...

مشيت وأنا في خضم الهيستيريا التي تملكت جسدي مبتعدة عن خالتي بينما كانت تحاول الأخيرة أن تروضني. تمد ذراعيها لتحتويني، فأشتم رائحتك فيها. لأُجن أكثر وأكثر فأرتعد وأبتعد.

حتى ارتطم رأسي بالنافذة فوجهت قبضتي إليها وأفرغت غضبي بلكمة غاصت في زجاجها لأُخرج كفي نازفة مثل روحي.

ركض ليث وأبي نحو الغرفة..

«ماذا هناك؟؟ ما الذي حدث؟»..

لم أرهم وهم يحملونني فقط لمحتك خلفهم، خارج أعتاب غرفتي، خارج أعتاب جرحي..

على شفا وجعي ونزفي؛ تسترق النظر عن بعد وكأنك تخشى الاقتراب.

تسمع نحيبي واحتضاري وتراقب موتي بينما أنت واقف على حافة هروبك، وأنا أسقط في هاويتي.

لم أشعر إلا بك وأنت أبعدهم عني!

أحسست بنارك ولكنك لم تشعر بجهنم التي أوقدوها في جوفي.

تحسّست دمعك الذي يخنق صوتك حيث أنت تقف على بعد أميال من روحي ولا تحس بفيضان القهر في عروقي.

في الوقت الذي كانت يدا ليث تنهالان على جسدي ضرباً وأبي يحاول أن يبعده لكن قواه وجسده المرتجف من هول المصاب لم يساعداه؛ سقط إلى جانبي بوجه مضرج بالدمع.

ولا يزال ليث يثأر مني؛ يثأر لي بي. ينتقم لجريمة استباحتي فيقع عقابه علي، وأنت حيث أنت تسمّرت مكانك؛ لم يحرّك المشهد قيد أنملة.

كفي تنزف ودمعي يمتنع. انقض الوطن على لحمي ينهشني ويعاقبني..

أنا قربان الشرف الأعظم ودمي أسكر الذات الوطنية، ودعاة الشرف يقتاتون على بقايا روحي، يصلبونها على أعمدة الموازين التي تكيل بألف مكيال. ثم يتركونني معلقةً بين الموت والحياة لأكون عبرةً لأولي الألباب.

أنا الشاة التي ذُبحت فكانت آثمةً لأنها لم تكسر السكين بأسنانها اللبنية ولم تقتلع وجه السفاح بمخالبها التي لم تنبت يوماً!!..

أنظر إليك بعين قلبي أراك تشاهد الوجع يفترسني ولا تشفق علي. لا تمنحني حتى صدقة الشفقة على دمي المسفوح.

أُنهك ليث وهو يوسعني ضرباً وأنا أتكوم على جرحي مثل صخرة تقطر دما ولا تملك دمعاً تبكيه. أخيراً تمكنت أمي وخالتي من إبعاده عني بعدما ترك على جسدي ما قُدّر له أن يترك من ملامح غضبه. ترك توقيعه إلى جانب توقيع السلطان على جلدي الذي استحال سجلاً لأساطيل القهر والعهر وثارات الشرف العابرة فوق روحي.

– ليلى –

وكل الحكايا التي يحيكونها حوله محض كذب؛ شطحات خيال..

أراه قد جمع أصابعه حول روحي ليخنقها. ما هو هذا الوطن الذي اختار أن يكون مقصلة ومشرحة ومقبرة للدراويش وقليلي الحيلة ومعدومي الحظ!!

وهُيِّئ ليكون جنة عرضها جثامينا وأرواحنا المنتهكة؛ قطوفها دانية ومدهوسة تحت أحذية ذوي المقامات الرفيعة وعظيمي السلطان وورثة السعادة.

ما هو الوطن؟! إذا كان الوطن أرضاً فكيف يكون هذا الوطن لنا؟! وأيٌّ منا لا يملك من هذه الأرض سوى بضع أمتار لم ينلها إلا بعد أن أفنى عمره حالماً بها. بضع أمتار مربعة تكاد الجدران فيها تضيق حوله مثل جدران قبر أو تتهالك فوق رأسه تعباً.

هذا إن لم يكن ممن أفنوا عمرهم قبل أن يمتلكوا شبراً من هذه الأرض فينال أمتاره القليلة على هيئة قبر!!..

ما الوطن؟! إذا كان الوطن أماناً، فأين نحن من ذاك الوطن ونحن نُنتهك في وضح النهار وما من ساكن يتحرك أو يُحرّك!! فالجبن نهش النفوس وقضم الرجولة.

ما الوطن؟! إذا كان الوطن أنتَ كما كنتُ أحسب، فكل الكون مناف إذاً.. والوطن كذبة كبرى..

– هـا نحـن نرتب حقائـب الذكرى. نلملم بقايـا وجودنا من حنايا بيتنا.

أول الأحلام المحققة والذي رسـم أبـي تفاصيله نافذة نافذة وحُجرة حُجرة. ملجأه الذي بناه وحيداً بعد أن فقد كل سند له في هذه الحياة تحت سقف هدمته السماء ذات سخط..

ها نحن نُطرد من الجنة بفعل إبليس الذي أكل التفاحة وبصق البذور في وجهنا فنهرب منه ونهرب من الفضيحة.

ها هم على جسدي يكدسون الأمتعة.. يجتثون الذكريات من أعناق الجدران، ويتهيأون للهرب قبل أن تفوح رائحة الفضيحة في أروقة المدينة.

أخيـراً اقتنـع أبـي من خلال الأدلة الدامية «أنا» البرهان الأكبر بأن هذه المدينة مسـكونة بأرواح الشـر منذ عقود. تفوح من أزقتها روائح الجثث التي لم تُدفن والتي يُعرف قاتلها لكن الجرائم دائماً إمـا يتهـم بهـا القدر أو تُقيّد ضـد مجهول. أخيراً اقتنع ألا ملجأ من رجسـهم بعد أن حسـب نفسـه ذات هرب أنه اتقى شـر الغيلان إذ أوى إلى كهفها..

ربمـا أنـه اقتنـع لكنه لم يشـارك في قرار الرحيـل. ظل صامتاً حتـى لحظـة دفع ليث لعجلات كرسـيه المدولـب خارج المنزل.. يتأمل الجدران التي تركها خلفه تردد صوته صدىً لا يسمعه إلاه.. وتغدقه بتمتمات الوداع التي كان يستشعرها بحواسه المتبقية..

ليث شاء الرحيل فاستجبنا في يوم لم يكن لأحدنا صوت ينطق به.

كان سـقوط أبــي إلـى جانبـي في اللحظـة التي ما أعانته قواه على رد لكمات ليث عن جسدي.

كان سـقوطه الذي لن ينهض منه مجدداً انسـحاباً رسـمياً من مواجهة الكارثة. عندما انهار إلى جانبـي حينها أعلن نصف جسده الأيمن عن شلل تام سيرافقه كل العمر..

أما لسانه فقد اختار الصمت الطويل؛ لم يكن هناك أي سبب طبــي يُفسـر امتناع حباله الصوتية عـن التواصل امتناعاً تاماً. فرغم الشـلل إلا أنـه كان مـن الممكـن أن يصدر بضـع أصوات وإن كان بلسان ثقيل..

كان الأمـر بالنسـبة لأبـي نفسـياً محض؛ وكأنـه قرار ذاتي من أبـي بالصمت المطلق.

فلـم تفلـح العقاقيـر أن تمنحني صوته.. مرة أخرى وإن كانت أخيرة...

– منى –

– أعتكف إلى جانب مجد بينما هو يضم قطه الأسود في حضنه ويموء مع موائه. أراقب التناقض الذي يلتهم جدران منزلنا. ألمح أبي يمر بصمتٍ أمام كل الخطط والقرارات التي تتخذها أمي، يصعد درجات السطح ويختفي.

يؤلمني الخواء الذي يقضم صدري؛ أضم قبضتي إلى صدري وأصلي» هذا الخواء الفسيح في صدري لن يملأه إلاك يا الله».

أضم نفسي إلى نفسي وأمعن في استجداء الذاكرة.. اللهم صوته.. اللهم عطره.. اللهم ريان.

يأتيني صوت أمي من الصالة؛ تيقظني من صلاتي. تملي علي أوامرها تباعاً دون فواصل، وحين تلحظ شرودي تقترب لتنكزني فأصحو. وإني أتألم حقاً يا الله كلما حاول أحدهم أن يهشم نوافذ وحدتي.

يرن الجوال ورقم غريب يغزو الشاشة، أردّ بلهفة وصوتي بالكاد يخرج من قمقمه.

– منى

يخفق قلبي كميتِ صعقوه فصحى من موته.. أخيراً، وأنهار باكية.

– منى..

يكرّر اسمي فيرتد شهيقي إلى خلايا الروح وأُبعث من رقادي.

– لا بدّ أن أراكِ.

– لا بد.. لا بد..

أجبته بحُرقتي..

– بعد ساعة عند شجر الحور..

– ليلى –

بعد ذلك الصمت الذي قتلتني به حين موتي كمن يمثل بجثة شوهاء – أصلاً – لم يكتف لها بالموت.

رغـم ذلـك الصمت الذي ارتديته أمامي يومها والذي لم يوارِ سوءتك أمام روحي.

ظللت أنتظرك أياماً طوالاً، وأنا متكومة على وجعي. أخلق لك من الهباء أعذاراً وألقيها إلى قلبـي فيباركها ويصدقها؛ وينتظرك... الانتظار.. مسكنٌ قاتل وإدمانه موتٌ مُضاعف.

كنـتُ أنتظـرك وكأنـك اليقين الوحيد المتبقي لأتشـبث به في لـجّ ضياعـي. انتظرتك وأنت الذي مزّقت أجندة مواعيدنا وبعثرتها في وجه الريح.

انتظرتك لأن ما لك في الوجدان أعظم من كل خذلانك الذي تركته ينمو حولي كغابة من صبار..

انتظرتك لأنني لا أملك زمام قلبـي؛ قلبـي الذي يرفض يتمه بكل ما في الطفل من غريزة تشتهي بقاءك.

انتظرتـك لأنني أتشـبث ببقايا روحـي؛ روحي التي تقف على أعتاب رحيلك تضم عبقك إلى صدرها، وتُكذّب نفسها.. وتنتظر.. أنت وموتي كم تشبهان بعضكما!!

احتجتكما بذات العوز وخذلتماني بذات القسوة.
أردتكما بذات الوجع وتركتماني بذات الصمت.
اشتهيتكما بذات التوق ونفرتما مني بذات الإصرار.
أنت وموتي متشابهان كما لو أنكما واحد!!...
- وبعثت لي مرسالك أخيراً..

دخل الصالة رجل ومعه آخر يتأبط سجل قهر ليؤرخ اسمي في جنباته.

أُجلس أبي ممدد الساقين إلى الكنب الكبير؛ محاولاً أن يرفع رأسه الذي كان أثقل من إرادته.. كانا قبالته بينما كان ليث قد ساقني إلى الصالة. التف الجميع حول جثماني يلقنونني صلاة الرحيل؛ يبترون حلم الطفولة.

وسط فوضى الرحيل العارمة والتي تعم منزلنا كان اختيارك أن تقطع آخر الحبال التي تربطنا بزمن ما قبل الكارثة. آخر أنفاسي العالقة على أطراف روحك كان لا بد أن تخنقها قبل رحيلي؛ لأرحل كجريمة كاملة.

فأوكلت مهمة طلاقي لمحام تثق به. تثق به لدرجة أنك منحته مكرمة أن ينفثني خارج حياتك.. يُطلق رصاصاته الثلاثة في وجهي بينما أنت تتمدد في سريرك. ترتب أفكارك وتضع رأسك على وسادة الوطن؛ تغمض عينيك عني وتغفو لتحلم حلماً جديداً؛ تلقيني خارجه مذبوحة على أرض الواقع.

أنّى لك كل هذه القسوة؟!! كيف لفظتني من قلبك بكل بساطة، وكيف تجلدني لأنني كنت الضحية..!!

ليـث شـاهد علـى طلاقي وآخر دسسـت في جيبه «طربوشـاً» وجاء ليشهد ما لم يُحط به خُبراً..

وأنا بذهولي واقفة؛ أراقب مشهد طلاقي من زوج لم يكن لي. مشهد انفصالنا الكامل قبل اكتمال ارتباطنا..

أراقبكـم وأنتـم تزجون بـي قرباناً لغول البحر الهائج؛ تفتدون أنفسكم بـي..

– قُـرع البـاب؛ فتحتـه أمي. كانت منى علـى تخوم مصيبتي؛ لمحتهـا خلـف الباب الـذي كاد أن يُغلق بوجهها. هرعت إلى غرفتي اختبئ..

أخبـئ إعاقتـي عـن ناظريها وأمي تسـد الطريق عليها. أظن أن نظراتنا تقابلت قبل أن أهرب إلى مخدعي؛ أتدثر بكفي الممتلئتين موتا؛ الممطرتين دماء..

أهرب من لقائنا الأخير. أخفي ملامح احتضاري بينما الحقد يجد لنفسه طريقا إلى جوفي فيتغلغل بـي والحسد ينشب أنيابه في قلبـي. أحسد الحياة التي لا تزال تحضنها لكنها رفضتني. أحسدها لأن القـدر لـم يخترهـا ضحية ومد يداً سـوداء لتختارني أنا من بين الأخريات.

تدخل أمي لتخبرني أنها صرفت منى بصعوبة وأنها اضطرت لاختراع كومة من الأكاذيب لتتستر على مقتلي وتمنعها من دخول متحف العار الذي أقف فيه صنماً مسفوح الروح.

– كل موت لي وأنتم بخير.. كل موت لي وأيديكم تقطر من دمي، وأنتم بخير..

كل موت.. وأنتم تتقنون الصمت؛ تحسنون للقاتل وتدوسون الضحية.. بينما توصون نعالكم أن تدهسها بلا ضجيج؛ بلا شوشرة..

فـي بـلاد تمنـح صكـوك الغفـران لذوي السـيادة والسـعادة؛ أصحاب الزمان والمكان..

ونحسـب أننـا أصبحنـا أكثر حضـارة، وردمنا أزمنـة التخلف خلفنـا. نظـن أن عصرنـا عصـر النهـوض وأننا جاوزنا مسـتنقعات الانحطـاط وهدمنـا سـقف الحرملك علـى رؤوس تجار الجواري وأحرقنا أسواق النخاسة!!

ولا نعلـم أننـا كلما لبسـنا بهرج التحضـر تصاب القلوب بداء التحجـر، وكلمـا ظننـا أنّا ارتفعنا رقياً كنا نسـقط فـي منحدر أعمق وأكثـر دونيـة. فخلف الكواليس بنيـت أقبية «الحرام لك» بعيداً عن أعين دعاة الحقوق الإنسانية ومناهضي التخلف والرجعية؛ لنتجاوز عهد النخاسة إلى عهد أكثر نجاسة..

– منى –

– وصلتُ. عيناي تتلقفان الوجوه بحثاً عن صبح طلعته. كان هناك يحتمي بظل شجرة؛ دنا مني فآلمني الخواء في صدري.

كآخر الناجين من حرب مسعورة يتكئ على جرحه ويخطو نحوي. ألقيت جسدي في حضنه وانتحبت. عانقته وشددته نحو صدري بقوة علّي أملأ به كل ذاك الخواء الذي نما وسط روحي في غيابه.

سمعتُ آهه حينما مددت ذراعي فوق كتفه. غرقتُ في حضنه أستجدي رائحة حضوره. أرجم إبليس الغياب؛ ألعن شياطين الإنس التي أذاقتني مرارة فراقه.

رفعتُ رأسي أتأمل ملامحه. أسكب شمس وجهه في عتم عيني لأبصر..

مددت أصابعي نحوه أتحسس الجروح التي تفتّحت في مسامه. ورحتُ أفكر بجلاده؛ بشكل أصابعه ولون بشرته وهيئة يديه..

وأنا أحملق إلى الكدمات التي اصطبغت باللون الأزرق والأحمر وانتشرت في جسده. جال بخاطري أن أسأل ذلك الجلاد

عـن حبيبتـه. أليـس لديه حبيبة يأوي إليهـا كل ليل؟! كيف لأصابع غرقت بدماء الضحايا ممن يشـبهون ريان أو ربما يناقضونه؛ كيف لأصابع تمرنت على الحقد أن تداعب جسد أنثى بحب؟!

هل حقاً عرف جلاده الحب يوماً؟!

هل عرف لذة العناق بعد الفقد؟!

إذاً لِـمَ لـم يترك لي في جسـد حبيبـي موطئاً آوي إليه وأعاده إلي مدججاً بجراحه؟!!

– ليلى –

الحقائب تسبقنا إلى سيارة الأجرة. أُساق كما المُساق إلى جهنم؛ زُمراً أنا وأوجاعي.

الحارة الضيقة؛ السماء المتدلية كضفيرة زرقاء من بين الأسطح؛ أبواب البيوت المغلقة على حكاياها.

الأرض التي حفظت خطواتنا حتى ميزتها؛ العمر الذي سنتركه خلفنا ونهرب.

وقفت أتأمل المكان، بينما سرعة الأحداث ووقع ما جرى يفتتان قدرتي على الاستيعاب كحطام تحت نعالهما.

«ما عم استوعب.. ما عم استوعب شي!!».

تمتمت بينما كانت دمعة طازجة تفر من عيني؛ حُرة؛ حُرة من كل تعاستي..

وقفت أمي تحدق إليّ طويلاً؛ تهزّ راسها كما ولو أنها تحاول أن تنفض هذه الغمامة السوداء عن كاهلها.

«مثل هذه الزلازل الكبرى؛ لا تترك مجالاً لاستيعابها. تضرب بغتة، ثم تترك الخراب. الخراب والنحيب... دون أن يملك أحد قدرة على استيعاب سرعة الدمار أو كيف حدث!!...».

أنهت عبارتها بصوتها التي حاولت قدر استطاعتها أن يأتيني

متماسكاً؛ كأنما الزلزال لم يضربها ويتركها محض حطام. ركبتْ السيارة، وبقيت وحدي تحت أنقاضي. إذا كان الزلزال قد ضربني إذاً فأنا ضحية؛ جثة تقف على قدميها، وتقدم رأسها للعدالة لتأخذ مجراها..!!

إذا كان الزلزال قد ضربني، وإذا ما كنتُ ضحية حقاً لمَ تُراها آلاف السيوف استُلَتْ لتنتقم مني...!!

.....

هربنا تحت جنح الخيبة دسسنا الحقائب والمصائب في سيارة الهرب. نمر بالشوارع نلقي عليها نظرة أخيرة وتلقي هي علينا بحمولة ذكريات زائدة..

ساعة الرحيل يمكنك أن تترك كل شيء خلفك إذ تمضي إلا ذاكرتك فهي دائماً تسبقك إلى وجهتك!!..

وأنت تكدس أشياءك في حقيبة واحدة لترحل خفيفاً من كل شيء؛ يندس الماضي بين طيات ثيابك التي حرصتَ أن تغسلها جيداً لتتخلص من رائحة الأماكن..

وأنت توضب القليل الذي قررت أن تحمله معك إلى أرضٍ أخرى؛ تكتشف فيما بعد أن الكثير الكثير قد تسرّب إلى حمولتك. أنك مثقلٌ ومكتظٌ بكل التفاصيل.. بينما أنت تهمّ بالمضي تتفاجأ أن حواسك مشرّعة على اتساعها تلتهم كل ما تقابله وتخبئه في سنام الذاكرة لتجتره ذات حنين.

عيناك تلتقمان الشوارع بيتاً بيتاً؛ دكاناً دكاناً؛ ناصيةً ناصيةً؛ وشبراً شبراً..

أنفك يكنز رائحة الجدران. لكل جزء من تاريخك عطر مميز؛ عطـر خـاص عطـر تنجبه الأشـياء تلقائيـاً وفطرياً. حتـى الأحداث قـد تنجـب عطورهـا ذاتيـاً، فكل حـدث بلا رائحة هـو حدث معدٌّ للنسيان... وهناك كان كل شيء معدٌّ للخلود..

– كيف لهذه الذاكرة أن تقتلع الأشجار من جذورها وتحشرها بين أشيائك؟!!

كيف لها آن تسـحب الأبواب من مقابضها؛ الجدران المثقلة بتاريخها والشباك الذي بدأ يأكله الصدأ... كل ذلك تجره وراءها!!

أصـوات الباعـة؛ رائحـة الفلافل الطازجـة.. تفاصيل وجه أبو عبـدو بائـع الفـول والفلافـل بشـامته الداكنة أعلى خـده وضحكته المهترئة...

أنّـى لهـذه الذاكـرة بكل تلـك القوة لتجرّ عالمـاً بأكمله معها، وتُسـكنك فيه مُرغماً. وكأنها تشـحذ سـكين التفاصيل وتأخذك من ناصيتك ليذبحك الحنين بدم بارد..

.....

هـا قـد وصلنا إلى أرض توزع أوسـمة الشـرف لكل الهاربين مـن بـلاد القمـع. لكل من كانـوا معتقلين أو مطلوبيـن. أما ضحايا الشرف الرفيع فيلقى بهن إلى العتم، تُقطع الحبال الصوتية وتدفن القضية، وتُلبس الضحية ثوب الحياة الجديدة فوق جيفة الماضي.

– وهـا أنـا هنـا ارتـدي ثوباً لا يليق بموتـي. لكنني كما كنت دائما لا حول لي ولا قوة، وها هم يقذفون بـي إلى دروب الحياة على أرض غريبة..

الأرض واحدة.. وحدنا من نحمل صحراءنا في قلوبنا؛ كهوفنا في رؤوسنا وقبورنا بين جنباتنا فنُسقط مكنوناتها على الأماكن.

الأرض واحـدة.. نحـن من نحفظ عهد البؤس فنتخذه سـماء ونحفر آبار الوجع عميقاً عميقاً، فنُسبغ مواجعنا على الأرضين.

– هنـا أي شـبر مـن هـذه الأرض هـو سـجني وقبـري.. هنا حيث لا أشـبهني كل الأشـياء تشـبهني تماماً. كل الأشـياء انعكاسي..

كمـا ولـو أننـي قد دفنتني هناك، وهنا مـا يُدعى مجازاً «أنا» ما هو إلا شبح مثقل بالقهر والفجيعة.

– منى –

– سأسافر.

ازدرد ريقه ثم كررها:

– سأسافر.. ريثما أُنسى.

رمى كلمته كحجر والبئر قلبي تكبر دوائر الوجع فيه بلا صوت.

– لا طاقة لي بهذا البلد..

– ألكَ طاقة بفراقي إذاً؟!

أجبته بينما راح يرمقني بعينه التي تخثر الدم في طرفها:

– منى أنتِ أدرى مني بحتمية هذا الفراق. أنا أعرف أن هربي جبن.

أتعرفين.. كنت أضحك كثيراً من ذلك المثل الذي يتداوله الجميع ها هنا «ستين كلمة جبان ولا كلمة الله يرحمو..» كنت أضحك منه وأبالغ في ممارسة فلسفتي لتفسيره وأجد فيه تبريراً سخيفاً للرضوخ ورفع راية الاستسلام.

أنا لا أريد أن أرضخ يا منى.. لكني ضعيف.. وحيد وضعيف وسط هذه الغابة.

كل أفكاري وفلسفتي لا تساوي رصاصة واحدة كان مرهف

قادراً على أن يفرغها في رأسي لو شاء، ثم يمضي وكأني ما كنتُ..

تابعتُ صمتي وأنا أصغي مدركةً حقيقة كل حرف ينطقه ريان، وأنـا ابنـة هـذه الغابة أعرف ذئابها جيداً وألعن طبيعتي التي شـذّت عنهم.. أعضّ شفتيّ قهراً وأصغي.

ماذا لو كنتُ نسـخةً عن فرح أو كونة.. لجنبت ريان كل هذا الوجع على الأقل ولكنتُ أقل بؤسـاً. أشـاركهم جنونهم والرقص فوق جثث الآخرين الذي أثموا إذ ولدوا لا ينتمون إلينا.

نظرتُ إليه وتمتمت:

– ماذا بقي لنا من إنسانيتنا.. ما أكذبنا إذ حسبنا مجرد وقوفنا على قدمين وتلك العضلة اللعينة التي لا تكف عن الثرثرة وسط أفواهنا مزايا كافية لتصنفنا بشراً!!

اقترب ريان مني وغمرني بين ذراعيه. جاءني صوته متهدجاً:

– قلتُ لكِ من قبل.. أحتاجكِ كما يحتاج هذا البلد لثورة.

انطفأ صوته.. أشـعلت سـيجارتي وجلستُ على الحافة أراقبه بعيني المتعبتين.

– أنـا جبـان.. لكـن أتعرفيـن من الصعب جـداً أن نخرج من هـذه القوالـب التـي ربينا فيها.. أن نخـرج فُرادى إذاً لا بد أن ننكسر عند أول عثرة.. وإذا لم ينكسر بعضنا لن يقتنع البقية بضرورة الخروج الجمعي من هذه القوالب.

اقترب أكثر، خلّص السيجارة من بين شفتي وهمس:

– أنا جبان.. لكني وحق محمد وعلي.. وحق صلاتك.

وحـق شـكك الأقـدس مـن اليقيـن.. وحق إيمانـك الأنقى..

أحبكِ يا منى.

أحبّكِ رغم أنف الطوائف والرصاص والبواريد.. والبساطير التي سحقت جسدي.

لكني جبان.. أجبن من أن أسألكِ أن تكوني رفيقتي في ترحالي.

أطفأوا سجائرهم في لحمي حتى صار هذا القلب منفضة لأعقابها.. علّموه الضعف وأيقظوا خوفه.

كل هذه الأيام يا منى وأنا أُصلب على أعمدة حبكِ.. حتى كدتُ أكفر بنبوءتي.. لم أكن يوماً مسيحاً لأحمل آثام هذا الكون كله وأدعي القوة..

كل هذه المدة وهم يسحقونني تحت أرجلهم.. يبصقون في وجهي ثم يضحكون من ضعفي. أنا أضعف من أن أسألكِ أن تكوني رفيقتي في هذا السفر.

صمت بينما لمحتُ ظلاً من الدمع يفيض في عينيه ويخنق صوته. عضّ على كفه بقهر؛ هرب من نظراتي ونأى بدمعه بعيداً عني.

بقيت مكاني، الكون يدور من حولي بجنون والوعي يفلت أصابعي حتى كدتُ أسقط في نقيضه. اقترب مني مستعيداً نبرته بينما الدم يتكثف في عينيه:

– منى.. لي أم وأخوات.. لم أكن لأخرج لولا أن قبّل أبي بساطير ملّتكم ضابطاً.. ضابطاً.. طرق أبوابهم أجمع من

المعلم أبـي جعفر إلى المعلم أبـي حيدر.. شاركني الذل والمهانة حتى عدتُ من غياهب أقبيتهم.

تنازعتني مواجعي وظللتُ جامدة مثل تمثال ألف مطرقة تهوي فوق جسـده ولا يملك صوتاً ليسـتنجد. أخيراً دنا مني، فسـرى تيارٌ من الشـوق في جسـدي. رأيتني أمدّ أصابعي الراجفة أمسّـد شـعره بينمـا غشـاوة مـن الدمع تحط فوق عيني ويبـدأ الإعصار. تأخذني دوامة البكاء؛ أرتجف مثل ممسوسة.. أشهق.. أنتحب.. أنوح..

يأخذني ريان بين ذراعيه. نتقاسـم الدمع كما تقاسـمنا الفرح يومـاً. تمـر العاصفة؛ نتحسـس ملامحنا المبتلـة. يربّت على كتفي؛ يمـرر أصابعـه المتقرحة فوق خـدي يلملم دمعي براحته.. يأخذني بين ذراعيه مجدداً فأسكن..

ثم.. عانقني كمن يؤدي طقس وداعٍ مثالي ومضى..

العَدَم

«إني أعرف مصيري..
سوف يرتبط اسمي يوماً ما بذكرى شيء
مرعب..
بتلك الزلزلة التي لم تشهد لها الأرض
مثيلاً من قبل».

«نيتشه»

ليلى....

أخـاف الليـل.. فهو يقضم أفكاري ويرمي بقاياها في رأسـي؛ يرتطـم بعضهـا ببعـض.. فـي أرض دفنـتُ تحتهـا ذاكرتـي فتيقـظ مومياءات الماضي لتنتشر في أرجاء روحي..

تعم الفوضى معالمي؛ ترتعد أوصابـي رعباً من فكرة انبعاث الماضي.. كم مرة سـأدفنه ويرجع لي شـبحاً يمزّق حاضري إرباً؛ يمتصّ الحياة من خلاياي. يتلقّفني لحماً ويرميني عظماً...

لم تكتمل غفوتي ليلة بعد صبيحة مقتلي..

كل ليلة في منتصفها أنتفض مرعوبة من فراشـي.. أتفل ثلاثاً عن شمالي.. أمسح العرق عن جبهتي أتعوذ من الشيطان وأستلقي علـى شـقي الأيمـن.. علّـي أنجو من كابوس العـذاب الأكبر الذي سرق مني العمر وما زال يطاردني..

أتفله من جوفي مراراً وأدير له ظهري.. ليتسلّق صبايَ ويفنيه، ويتلصّص على غفوتي فيسرقها.

وإذا مـا جـاء ثلـث الليل الأخير يكون قد قفز إلى صدري ذاك الكابوس لينقب عن حجرة في تجاويف القلب يسكنها...

أصحو لأغتسل من إثم الحلم المريع؛ أتوضأ من رجسه العالق على جسدي، وألبس ثوب صلاتي.

أولـي وجهـي قبلتي.. أبكي قهري وأجهر بدعائي المصبوب ناراً على جسد كل ظالم. أصوبه إلى جوفه أتوسل الإله أن يبكيه دمـاً أضعـاف دمـي.. وبهدوئـي الذي يلـي النحيب المسـتعر أتمّ صلاتي..

أكره الليل وأمقت البحر وأهلع لدمع السـماء.. لم أرَ أشـعة الشمس تتكسر على أمواج مرآتها التي نسيتها بجعبة الأرض عندما مـرت بكوكبنـا ذات زمـن.. لم أرها ولم أطئ بقدمي شـاطئ البحر منـذ يـوم قيامتنا الغابر.. حين سُـجّر البحر بنـار الطغيان وذُقتُ من أهـوال العـذاب مـا جعلنـي أصـاب بفوبيـا الشـواطئ ودوار البحر وغثيان الأمواج..

لكنـي مثلمـا اكتسـبت رهابـاً جديـداً أظننـي شـفيت من آخر قديم.. أبشـرك لم أعد أخشـى قطار الموت، بل صرت أنتظره في كل المحطـات التـي قـد يمر بها عسـاه يحملني بدورتـه الأفعوانية ويقذفني في حضن العدم حيث راحتي الكبرى..

– كانت أمي دائماً تقول لي محاولةً مواسـاتي كلما ضربتني عواصف البكاء والهذي:

– «الذهب ليصير سبائك لا بد أن يحتمل لهيب النار...».

وأنا سبيكة من القهر الخالص.. لا شوائب فرح تعكر جرحي الأزلي..

– أمي التي كانت تحاول أن تواسـيني ماتت كمداً وحسـرة.. كانت هي من تحتاج المواساة..

كان الوجع أقوى من جسـدها؛ الكارثة التي قسـمت ظهرها..

حزني الذي كان حزنها فحمله قلبها مضاعفاً وجعاً على وجع..

أرداها ذاك الحمل الثقيل عليلةً، وجعها أنا وداؤها مصيبتي؛ فأنى لها الشفاء!!

حاولت أن تظل راسخة بقوتها – المُدّعاة – وسط ضعفنا المعلَن. كذبت علينا وعلى نفسها إذ هي تحني ظهرها باسمةً لنكوم أوجاعنا عليه.. كذبت علينا وعلى نفسها إذ ادّعت أنها قادرة على كل هذا الحمل وحدها مصرّةً على الوقوف كمنسأة نتعكز عليها إذ نال منا العجز وأسقطنا التعب..

كذبت علينا إذ أبدلت دمعها ضحكاً؛ وكتمت أنينها حتى كبر مثل علقة تمتص دمها وتنهبها بقايا روحها المتهالكة.. تتمتم:

«لا رادّ لقضاء الله...».

ولا رادّ يا أمي في بلادنا للقهر؛ كلٌّ ينال نصيبه بقَدر وكلٌّ يعض على الجرح ويموت صمتاً.

القهر كان الحمى التي أودت بأمي.. فأفلتت يدي وتركتني وحيدة في وجه كل العواصف؛ وحيدة وعارية يقرضني البرد.

من يخبر أولئك الموتى كم مرةً متنا وحيدين من بعدهم!!..

يقتلني هذا الإحساس بالذنب وكأنني أنا من قتلتها؛ أنا المقتولة والقاتلة.. أم أن قاتلنا واحد.. كيف لي أن أسامح نفسي، كيف لي أن أسامحكم جميعاً..

كيف لي أن أسامح أنانيتك؛ هواني عليك وانهزامك ذات هرب... أنا المقتولة والقاتلة..

دمي على نصل الأيام يسيل؛ لا تتعجلوا وتتهموا الزمن بقتلي.. فجريمة الذبح عن عمد وقصد وسبق تصميم وترصد وتمدد. جريمة القتل البطيء تبدأ باختطاف الفرح من العيون مروراً بانتهاك حرمة الجسد وتستمر حتى انتهاء صلاحية الأمل وانسلاخ الروح عنا..

* * *

– ها أنا أغرق بين بخار الأواني..

أقصر طريق لهروب المرأة من نفسها هو الطريق إلى المطبخ.

كيف وجدتني هنا في هذا الركن غارقةً ليل نهار؛ لا أحد يعرف. وأنا نفسي لا أعرف ولا حتى أذكر كيف بدا الأمر..

أظنه تاريخ المرأة في مجتمعنا. فهي لم تولد بين الأواني والقدور، كانت ربة بيت..

كانت ربة!! لكن من أنزل هذه الربة عن عرشها؟!!

لتصحو ذات عمر فتجد نفسها عالقة بين لوائح الطعام تبحث عن سرها الخاص في مكوناته.

ممَّ كانت تهرب حين أخفت رأسها بين القدور لتكتم أنفاسها روائح التوابل وبخار الطهو!!

ممَّ كانت تهرب؟!!

من يأسها؛ وبؤسها.. من واقعها الذي كان يضيق حتى كاد يخنقها. فلم تجد منفساً لها إلا قرب موقدها!

سفحت دمعها وأوقدت تحته نار انتظارات غابرة؛ قطعت رؤوس أحلامها؛ سلخت جلد الأمنيات

وراحت تعد للقبيلة وليمة من روحها!!

وها أنا هنا أعيد تاريخها وأعدّ موائد وأطباقاً تحظى بإعجاب

الجميـع. وهكـذا وجدتني أعقد اتفاق عمل مع مطعم؛ مالكه صار مقرباً لليث.. ثم أكثر من ذلك...

هل كانت فكرة الأشغال الشاقة الشاقة فكرة عقابيةً حقاً؟! أم تراها أكثر الأفكار الإنسانية نُبلاً!!

أن تمنـح الإنسـان عمـلاً يدقّ به عنـق الوقت. ألاّ تُترك للزمن تراقبـه بعيـن نصـف ميتة منتظراً انقضاضه عليك ليقطعك.. تحصي تكات ساعاته ريثما تنقضي بينما هي تقضمك على مهل!!

وتقدمـك للفـراغ علـى طبق من عدم لينهشـك مـن الداخل.. تتآكل؛ تهرم؛ يقتلك الضجر.. تموت قبل أوانك...

– لا بد أن نكون، نحن المقيدون إلى زنزانة الوقت، ممتنين لذلك الشق الأخير من الحكم الصادر بحقنا:

«مع الأشغال الشاقة»...

* * *

الصُدف هي أقدارنا التي لا نملك لها تبديلاً. القضاء الحقيقي الذي قد يضعنا فيما بعد أمام فوضى عارمة من الخيارات..

الصُدف هي الحبكة الإلهية في حكاياتنا. الأمر الوحيد الذي هو في حقيقته خارج عن إرادتنا في الرفض أو القبول، والتفسير المنطقي الذي قد يبدو في ظاهره لامنطقياً تماماً. لكنه التفسير الوحيد الذي نملكه لكل ما قد نجد أنفسنا متورطين فيه دون أدنى قرار...

الصُدفة: الكلمة التي إن تعمقنا في فهمها فقدت معناها تماماً..

فحياتنا سلسلة من المصادفات التي تقودنا إلى ما نحن عليه في الواقع..

وتحت هذا المسمى الذي فقد معناه بالنسبة لي كان ما قد حدث يومها...

حين جاءتني ريم باكية؛ دخلت غرفتي على عجل أغلقت الباب وأسقطت جسدها الصغير إلى سريري لتتكئ برأسها المُرهق والغارق بدمعه على كتفي.

كانت صبية صغيرة؛ وجهها بالكاد أشرق بملامح الصبا وجسدها بالكاد تفتّح بأنوثته..

بللني دمعها أنا الأرض الجدباء التي قاطعها المطر منذ أمد

ليس بالقريب..

لـم تنتظـر سـؤالي بـل بادرتنـي بإلقـاء صدمتها على مسـمعي بصوت نديّ مرتعش:

«بالصُدفـة.. قسـماً بـالله بالصدفـة.. مـا قصدت بـس هو كان مفتوح..».

لـم أفهـم عمّـا كانت تتحدث لكننـي عرفت أنها حبكة جديدة من حبكات القدر..

«ما الأمر؟ هلاّ هدأتِ قليلاً لأفهم...».

أبعدتْ رأسها عن كتفي وراحت تلملم دمعها المهدور براحة يدها..

«جوال ليث.. لقد غفا بعد عودته من العمل بقليل بينما الجوال بيده...

كل ما فعلته أنني أردت أن أرفع الجوال عن صدره لأدثره...».

هـذا كل مـا أرادتـه ريـم لكن ما أراده القدر كان شـيئاً مختلفاً تماماً..

فما رأته في تلك اللحظة – بينما ليث يغفو ساهياً – كان أول زلزال يضرب علاقتها بليث منذ زواجهما الذي لم يُتم عامه الأول بعد...

جاء اختيار ليث لريم مبنياً على إلحاحه بأن تكون زوجته من بيئة ملتزمة وأن تكون «قطة مغمضة».

لذا كان انتقاؤه صبية لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها...

هكذا جاءت ريم على مقاس رغباته تماماً..

وكان ليث حريصاً جداً أن تظل حكايتي مدفونة في بئر بلا قعر ردمناه في الوطن وجئنا ها هنا ناسين ومنسيين..

ما عرفته ريم عني كان ذات الحكاية التي فصّلها ليث ليرويها عني لكل من عرفنا في هذه البلاد.. «عن زواج تام الأركان.. كان وانتهى بطلاق حقيقي!!»..

– ما حدث في ذلك اليوم لم يوجع ريم فحسب.. بل إنه ترك أثره في روحي أيضاً..

حينما حملت ريم الجوال لتضعه على الطاولة؛ اكتشفت أنه مفتوح. ما لفت نظرها في تلك اللحظة كان صورة قد وصلت إلى جهاز ليث في صفحة المحادثة التي كان ليث غارقاً فيها بينما غلبه النعاس..

تلك الصورة استدرجت ريم لتقلّب في المحادثة كلها، فتكتشف عشرات الصور غيرها.

صور شبه عارية لذات المرأة.. صور كثيرة وكلام كثير كثير، وعلاقة خاصة جداً جداً.

لم تتح الصدمة لريم أن تتأكد من مدتها، لكن ما بدت متأكدة منه أنها منذ أشهر طويلة.

لم أعرف حينها كيف أهدئ روع ريم أو حتى كيف أكفكف دمعها..

مزيج من الخزي والذهول؛ ما أوجعها قد أوجعني حقاً.. أوجعني بشكل مختلف وخاص جداً؛ أوجعني حتى أني ازددت يقيناً بأن الموت أجمل ما في الحياة!!

مـن يمنـح القضـاة حصانة ليمرنوا عضـلات مثاليتهم بصفعنا بمواعظها كل حين بينما يتكتمون على آثامهم التي يمارسونها كآلهة تسأل ولا تُسأل عما تفعل!!

كيف يمكننا أن نخلق لأنفسنا أمام أنفسنا ألف مبرر يعطّل أي وازع نملكه؛ بينما نستنفر بجاهزيتنا الكاملة من المُثل والقيم لنشرّح خطايا الغير دون أدنى إحساس بالخجل من قبح ازدواجيتنا!!

ريم... بعد فترة ليسـت بطويلة قررت أن تطوي هذه الحكاية تماماً – وفق نصيحة والدتها – وأن تهتم بزوجها أكثر!!

سـألت نفسـي: «ما ماهية الأكثر؟ أو ماذا يمكن أن يكون أكثر من كل ما تفعله وفعلته ريم دائماً!!

ما الذي تعنيه بالضبط؟!».

لكنني رأيت الإجابة أمام عيني؛ فيوماً بعد يوم كان ليث يصير سلطاناً وريم تجيد دور الجارية بإتقان.

جارية صماء؛ بكماء؛ عمياء!!

«الله يرضـى عليهـا..» يتمتـم ليـث كلمـا ذُكرتْ ثـم يغرق في جواله..

* * *

أتعرف ما القهر؟!!

عاجزة أن أرصف تعريفاً دقيقاً له لكنني أملك منه ما لم يحظَ به أحدٌ فوق هذه الأرض قبلي..

القهر هو وجهك الذي تأملته طويلاً وأنا أنزف؛ تفصلنا بضع خطوات لكن المسافة كانت بيننا كوناً بأكمله..

القهر هو صمتك الذي حملته في حنجرتي سنين لعلّي أفهم ما الذي دفعك لاعتناقه حين كنت في أشد اللحظات احتياجاً لصوتك..

القهر نظرتك التي راحت تطعنني دون رحمة وتشرّحني كمشرط لا يبصر دمي على نصله.

القهر هو كل ما حدث؛ هو كل ما سيحدث!!

أنت لا تعرف شيئاً عني..

عن امرأة تغفو لتحلم بك بعد أن يعيها السهر انتظاراً. أنت لا تعرف شيئاً عن أنثى قتلها تعب غيابك وذبحها صخب صمتك...

عن أنثى تقاسم العالم لحمها وباعها على أرصفته منادياً: «من يشتري هذا الوجع؟!!».

المارّة كُثر والمشترون كُثر والباعة كُثر.. أما البضاعة فواحدة ووحيدة.. «أنا»...

منهم من اشتراني بنظرة شفقة ومنهم من اشتراني حكايةً دسمةً ملأى بالمواعظ والعبر.. ومنهم من ابتاعني طبقاً رئيسياً لرغباته؛ مكباً مثالياً لشهواته..

ومنهم من ازدراني.. ومنهم ومنهم ومنهم.....

أما أنت فلم تفكر إلا بنفسك؛ وكأن الجرح جرحك وحدك..

وكأنني هباء نفضته عن كاهلك وعبرت؛ كيف عبرت؟!!

كيف دون حتى أن تهبني حرفاً أخيراً؟!

كيف نكرت هذا الإيمان؛ هذا الإيمان الذي حملته لك في قلبي. هذا اليقين الذي ما كان سوى محض كفر..

كيف وضعتُ روحي على كفي ووهبتها لك لأقف في منتصف الموت والحياة أبحث عن سبب يجعلني أمضي قدماً في أحدهما. أبحث عن القشة التي تقسم ظهر «الحياة» لأهوي عن كاهلها إلى قبري مكتملة العدم.

أبحث عن قشة طافية فوق هذا اليم من الأسى؛ قشة أدرك أنها ليست سوى أمل كاذب. لكنه كافٍ لأن أمد أصابع البقاء إليه متشبثة به كفرصة أخيرة للوجود.

هذا اليقين الذي لك في قلبي هدّ كل أركان روحي فبقيت أحمله فوق خرابي مثل حضارة خاوية على عروشها تحمل أطلالها وتمثالاً وحيداً مقطوع الرأس؛ يُحكى أنه كان مليكها!!

المسافة التي صليت أن تأخذك مني وتهبني النسيان لم تضع شيئاً إلا أنها زادتني وجداً؛ حتى أخبارك لم تنقطع عني.

رغم أني كنت أهرب منها دائماً؛ إلا أن الصدف كانت تصرّ

أن تضعني وجهاً لوجه مع فتاتها.

ربما لم تكن الصدف؛ ربما هي رغباتي التي كنت أحبسها فتتسلل إلى كوني لتسوق الأقدار الملائمة لها فتتجسد لي. ربما هي شياطين مردة تسترق السمع وتلقي بشُهب حكاياك فوق رأسي..

زواجك الذي جاء أسرع مما يليق بموتي. حسبتُ أن المقتول لن توجعه سكين تعبث بجرحه...

من هي؟!

هل أعرفها؟!

هل تستحق قلبك؟!

هل تمطرك عشقاً كما يليق بمناخك؟!!

هل حفظت ملامح روحك؛ كما أحفظها؟!

هل تحتمل طقوسك وجنون فصولك كما احتملت؟!!

هل أتقنت رتق المواجع في صدرك؟!

هل تعرف مقاس الفرح في عينيك وكم سماء قابعة في فضاء ضحكتك؟!!

وهل نسيتني؟!!

يا صاحبي وحبيبي.. هل أحبتك كما ينبغي لجلال قلبك وعظيم شأنك؟!

والأهم من ذا وذاك

هل أحببتها؟!!

طفلك...

طفلك الذي ما ارتضى رحمي مستقراً..

طفلك الذي ربيته في كنف حلمي؛ كبر في أحشائي..
فأنجبته أخرى!!
بضعٌ منك كبر في جسدها.. طوبى لها
طوبى لها..
طفلك...
هل منحته سُمرتك؟!
وأجفانك المثقلة بأهدابها..
طفلك الذي خان رحمي...
.....
بعد كل هذا الغياب؛ استسلمت أناملي مرتعشة لإلحاح وجدي.
كنت مسيّرة تماماً وأنا أطلب رقمك.
كيف لرنين هاتفك أن يكون بكل هذا الحنو بينما أنت بكل هذه القسوة؟!!
كيف لرنين هاتفك أن يهبني كل هذه الطمأنينة بينما تمنحني أنت كل هذا العذاب؟!!
ثم جاء صوتك...
وقابله صمتي..
صوتك..!!
انسكاب النور فوق فوضى العتم
فيض الضوء من مسام الشمس..
انهمار الـ «كنْ» على أرض العدم...

اغتسلتُ بـه كآثمـة في محـراب الرب وصليت على سـجادة نبرتك..

صليتُ.. صليتُ.. بصمت وتوق..

صليتُ حتى أغلقت هاتفك غاضباً في وجه سكوني..

صليتُ حتى سقطتُ مغشياً عليّ في قعر غيابك...

أنّى لي أن أكرهك؟!

* * *

الليل معبرٌ آمن للذكريات؛ للخوف.. لهواجس تتسلق كتف اللاوعي وتتسرب إلينا.

نسقط فيها بغير إرادة تحت وطأة النوم. يسطع وجه أمي صافياً لا يشوبه حزن ولا يكدره أسى. تمشي نحوي ثم تجلس في منتصف الطريق قبل أن تصلني. أراقبها مذهولة بقيامتها.. تجلس كأنها على سجادة صلاتها؛ تسبّح على عقد أصابعها كعادتها قبل الرحيل. ترفع بصرها نحو السماء بين عقدة وأخرى. قبل أن تنتهي وبينما أنا أراقب انهماكها في التسبيح، يركض أبي نحوها لاهثاً والعرق يغسل أوصابه كأنه ركض مسافة طويلة.. تنسى تسابيحها تنظر إليه بلهفة وكأنما أقعدتها المفاجأة، تمدّ ذراعيها على اتساعهما بينما تشير إليه أن يقترب..

يدنو ويدنو حتى ينكمش في حضنها كطفل صغير.. ثم أصحو..

ويظل الليل بئراً لهواجسي.. فسحة الذاكرة..

فأراك – حلماً – تقف فوق تلة عالية بينما أنا في وادٍ غزته الأشواك لا موضع فيه لقدمي دون جرحٍ مؤكد. وعواء الذئاب يحيق بي.. يقترب أكثر، يزلزلني الخوف.. أركض نحوك. تدمي الأشواك قدمي، أمدّ لك يدي وأصرخ.. تظلُّ واقفاً وبصرك حيث

لا أدري.. متجاهـلاً اسـتغاثتي. الذئـاب تقتـرب، وأقدامي المدماة تتابع سعيها نحو النجاة. ألتفتُ خلفي ألمح ليث ممتطياً ظهر ذئبٍ عملاقٍ يحمل السوط في يده ويعدو نحوي.

أحاول أن أصرخ.. يختنق صوتي. ألوّح لك.. فلا تبصرني.

ثـم أصحـو مضرجـة بعرقـي، وحقل من الشـوك قـد نبت في حنجرتي. ألهث.. أتفقد سريري؛ أبحث عن مقبس الكهرباء، أغرق في الضوء، وأقضي الليل يقظةً خشية اللاوعي..

* * *

الثوب الأبيض مثل العدم..

أبيض مثل الاستسلام؛ مثل الصمت؛ واللاشيء..

فـي الوقـت التـي تؤخذ فيه الأشـياء إلى أقصـى أقاصيها؛ في الوقت الذي من المفترض أن تكون فيه الأنثى كما الرجل في أكثر حالاتها تحيزاً وحياة واختياراً..

في اللحظة التي تسـتوجب أصعب القرارات وأهمهما؛ تُلبَس الأنثـى رايـة استسـلامها وتُزف وسـط زغاريد من سـبقنها إلى هذا الاستسلام..

- هـا أنـا أرتـدي العـدم؛ بيضاء كجثة نفد دمهـا بعد أن نزفته ثلاثة أعوام بلا انقطاع.

الثـوب الأبيـض.. يقولـون إن الكفـن لا جيوب له وكذا ثوب الزفـاف.. أمـد أصابعـي أفتش في كفني عـن جيوب فلا أجدها. لا جيوب لأخبئ أحلامي أو أدس بعض حياة في أحدها...

- لِمَ الأبيض؟!!

لِمَ تُلبَس الأنثى أبيضَها مرتين؟! حيةً وميتة...

هل تُراهم يعلمون أن الموت – غالباً – واحد في الحالتين!!..

أرتديه؛ أقف أمام المرآة.. أتأملني.

يـا الله مـا كل هـذا المـوت في وجهي؛ لم تفلح كل مسـاحيق

التجميل بتمويه موتي، أو ببث شيء من الحياة في ملامحي.

فشلت تلك الكريمات بإخفاء الليل الذي ادخرته تحت عيني، ولم يمنحني الروج شفاهاً متوردة. كان الموت بـي حقيقياً أكثر من أي شيء..

– قـرر ليـث وجـوب أن «أنسـتر» بعـد كل هـذا الوقت، وألاّ حجج أملكها للرفض...

كان أبـي يسـمع كلماته يرمقني بنظرة شـفقة لست أدري أكان يقصدني بشفقته أم يقصد نفسه بعد أن أصبح لا يملك زمام القرار.. هزّ رأسـه مراراً واكتفى بسـفح دمعتين كإشـارة للقهر. الدمع بقايا صوته الذي ما زال قادراً أن ينطق من خلاله.

حـرّك كفيـه فـوق عجلات كرسـيه المدولب، وانسـحب يجر خيط نحيبه وراءه بتأن.

كان وليد مالك المطعم الذي أعد له وجبات الطعام كطلبيات يوميـة. هـو العابر الأول والوحيد الذي طرق بابـي المتصدّع. وليد الذي يكبرني بثلاثة عشر عاماً والذي أخبر ليث حكاية انفصاله عن زوجتـه منـذ زمن ليس بالطويل. موضحاً سـبب الانفصال بصراحة شـديدة جداً ملخصاً سـني زواجه السـبع ومحاولات طبية مضنية بجملة واحدة.. «لا أمل لي بالإنجاب..».

قالهـا وليـد بـكل وضوح ولم يجد فيها ليـث أي عائق لإتمام «ستري»..

قررت أن أجرب صوتي هذه المرة.. أن أستخدم إرادتي التي قالوا كثيراً أني أملكها وعذلوني كثيراً مفترضين أني لو استخدمتها

لكبحت جماح الغول، ورددت شره عن جسدي.

قررت أن أقول «لا» كتجربة حياة وسط هذا الموت المستمر. فقلتُها...

قلتها في قلبـي.. فشجعني الصدى على التمرد..

صرخت بها في غرفتي.. فصفقت الجدران لجرأتي..

كتبتهـا فـي دفتـري ألـف مرة.. ألف مـرة كررتهـا حتى تعبت أصابعي.. فبارك الورق ثورتي.

أخيراً خرجت من صومعتي لأنطقها..

قلتهـا فـي وجـه أبـــي وأنا أعلـم مدى ضعفه؛ قلتهـا فرد على «لائي» بتنهيدة؛ وصمت طويل لم يكسره منذ أعوام.. صمت بعمر كارثتي..

قلتهـا فـي وجه ريـم وأنا أعلم مدى «نَعَمها» وأعلم أن «لائي» أثقـل مـن أن يحملهـا لسـانها، أو يسـتوعبها عقلهـا. لكنهـا كانـت تسـتوعب جبني تماماً بمواجهة ليث. وكنوع من التعاطف الأنثوي نقلتها إلى ليث كاملة «بلامها وألفها». نقية بغير شوائب أو إضافات. قالتها ذات ليل..

فكأنما نفخت بالصور لتُنهض الماضي من سباته الكاذب.

سـمعت صراخـه أمام بـاب غرفتي؛ لم يحاول فتحه ولا حتى طالبني بالحضور.

كان يتحـدث إلـي؛ عنـي بضميـر الغائب رغـم حضوري لكنه حضـور منطفـئ. راح ينهـر ريـم ويبثنـي أوامـره الصوتيـة بصـراخ متواصل.

كنت أسمع تهشُّم الأشياء خارج غرفتي كفواصل بين الجملة والأخرى؛ كتفريغ لثورة الغضب التي نشبت في رأسه. فرحت أشكر تلك الشظايا لأنها حملت غضبه عني.. رحت أشكرها وأعدها أن ألملمها بأصابعي وأحملها بتقديس – كرماد جثمان – حتى مثواها الأخير. لأمنحها شكراً حقيقياً..

«فهميها أنو كتر خير الله يلي بعتلها واحد يستر عليها بعد هالعمر..

ما بدي أفتح دفاتر قديمة.. بتقوليلها صوتها ما بدي اسمعو إلا بعد ما تصير ببيت الزلمة..».

وزجاج آخر يتناثر.. صمت قصير يليه رسالة صوتية جديدة:

«فهميها لهالبنت...» ثم ضحكة طويلة مصطنعة... «بنت!!!...».

وضحكة أخرى... كم طعنة سيحتمل هذا القلب بعد يا تُرى؟!!

«فهميها أنو خلينا ساترين حالنا بلا ما ننشر غسيلنا الوسخ إدّام خلق الله..

وبلا ما أنهي هالقصة بطريقتي يلي كنت لازم أنهيها فيها من زمان.. تشكر ربها أنو في حدا رح يسترها ويخلصنا من بلوتها....».

وشكرت ربي كثيراً.. شكرته كما لا يُشكر سواه في الضراء..

حاولت أن أتماهى مع ضرّائي وأتقبّلها كسراء خالصة... لكن كل شيء حولي كان أكبر من طاقتي على الاحتمال..

– كانت ريم بجسدها المثقل وبطنها المتكور أمامها تحاول أن تحد من طوفان حنقه؛ أن تلملم شظايا غضبه؛ أن تبرّد حمم انفعالاته.. لكن دونما فائدة.

راحت تبلغه أنها فهمت وأنها ستفهمني كما طالبها رغم أنها وجدت نفسها محاصرة بألغاز وأسئلة كثيرة قرأتُها في عينيها تحت سماوات ممطرة. لم تسأل ولم تحاول حتى أن تفهم. لا شيء مهم سوى بالنسبة لها إخماد هذا البركان الذي ساعدتني بإثارته.

مسحت على رأسي، وشاركتني البكاء كصديقة قديمة..

لم تخرج عن صمتها حتى بعد خروجها من غرفتي؛ لم تحاول أن تفهمني كما طالبها.. فكل ما بي أخبرها أني فهمت.. فهمت كل شيء جيداً.

بخطا مثقلة جرت جسدها المنتفخ وخرجت؛ لتتركني أجابه الليل وحيدة دون غطاء.

– وها أنا أُساق إلى موتي الثاني قبل الأخير.

يوقعون عقد الملكية بالنيابة عني؛ ليكون شاهد فرحي ذات عمر هو ذاته شاهد هذه المرة على صك التنازل وكما هي العادة يدفعون تسعيرة أعلى لشاهد الزور هذه المرة..

يُطرق الباب بلطف؛ أهمس للطارق بإذن العبور. يطل وجه ليث بشوشاً كما لم أره مذ ليلة زفافه. يرمقني بعين تصطنع الرضا كما لم أرَها منذ ثلاثة أعوام...

تلتقي نظراتنا المتناقضة؛ لا أدري متى كانت آخر مرة التقت فيها أعيننا. لكن يقيناً هذا قبل تاريخ الكارثة.

«ها أنت عروس.. أخيراً..».

قال جملته وهو يدنو مني بينما كانت أوصابي ترتعد...

فذاكرة الألم لا تغفو أبداً وتصير أكثر تيقظاً إذا ما لكأها أحدهم

بنظرة أو حتى حضور. وحضور ليث أنعش ذاكرة الألم في أضلاعي التي لم تنسَ لكماته وصفعاته بعد كل هذا الوقت..

هكذا هي ذاكرتنا جاحدة؛ خائنة؛ قابلة لنسيان أكثر المواقف جمالاً إذا ما تلطخت ببقعة قبح واحدة.

وفية جداً للوجع؛ تنسى – دون أن نتعمّد – تاريخاً كاملاً من السعادة وتبقى الأوجاع حاضرة بكل تفاصيلها؛ حيةً تنبض.

فرد ذراعيه على اتساعهما واحتضنني بينما كنت أحضن نفسي؛ أحاول لملمة رجفتي وابتلاع شهقتي. أصلب ساعدي كدرع بيني وبينه..

يحضنني فأحضن نفسي محاولة قدر استطاعتي ألا أنتزع جسدي المتهالك من بين يديه..

لم أستطع أن أتحسس دفء حضوره أو حنان ضمته؛ كان رأسي ممتلئا بنعيق الذكريات...

المشهد الأسود..

«كفي النازفة.. زجاج النافذة المبعثر بالقرب مني..

ارتعاشات أبي..

أنت تقف على علو شاهق من هاويتي...

ليث.. ليث بكامل جنونه وغضبه وحقده

يصفعني ويصفعني... ويصفعني.....».

المشهد الأسود أعادني منه صوت ليث إلى مشهد يحتال على واقعي محاولاً أن يرتدي الأبيض ويجبرني أن أرتديه..

– «الآن يمكننا أن نطوي تلك الصفحة البائسة.. بل يجب أن

تحرقي ذاك التاريخ كله..

لتبدأي من جديد.. انسي».

لم أجبه؛ لم أعرف كيف لصوتي أن يجابه أوامره التي ألبسها ثوب الأمنية..

ثلاثة أعوام كاملة وأنا منبوذة تماماً؛ منفية خارج حياته.. لم يوجه لي كلمة.. لم ينطق بحرف.

كنا في بيت واحد؛ لكننا غريبان حتى النقي..

يتحاشاني كوباء قاتل؛ يتحصّن من رؤيتي بغرفته إذا ما كنت خارج جدران قبري..

كنت طيلة تلك الفترة مجرد شبح؛ تفزعه رؤيته ويرهقه وجوده..

حتى أنه شطب اسمي من ذاكرته وغدوت في أحاديثه ضميراً مستتراً وجوباً..

«جاءتْ.. قالتْ.. فعلتْ.....» هذا إذا ما اضطر لذكري.

كم من أنثى في هذا الكون تُختزل لتصير مجرد ضمير مستتر!!

وبذات الطريقة أقرّ زواجي، ووارني مثواي..

«زُوّجَتْ....».

* * *

وحين سألتها مرة في أحد نقاشاتنا التي لا تعترف بالخطوط حمراء؛ بلمزة مني إلى «خلعتها» الخضراء:

– «لكن.. ما الفرق؟!».

– «لا أعرف.. الدين سرٌّ أعظم من أن يأمنوا عليه أنثى..».

وضحكتْ باقتضاب.. «لكني أؤمن ألا فرق.. بيني وبينك على أقل تقدير.. فأنا أعبد الله وأراه في كل شيء جميل وأهمها ضحكتك يا ليلى.. وأصلي له بكل إيماءة من جسدي.. ويحدث أن تكون حواراتنا هذه صلاة.. صلاة من نوع آخر»..

والآن يا مُنى..

أخبريني كيف لي أن أرى الله وسط هذا القبح؟!

كيف لي أن أصلي له بكل إيماءة وأنا أفقد قداسة حركاتي وسكناتي...

وأنا ينخرني كل هذا الدنس؟!!...

ها أنا أبصر نوره جلياً بقلبي.. وقلبي يحدثني أن هذا المكان لم يعد لي...

الليل يقترب مثل وحش يتربص لينقض عليّ. أراقب الساعة بجزع. الليل يخطو نحوي وذاك الفراش تفوح منه رائحة الجريمة...

لا أحد يعلم كم أنثى تُغتصب تحت جنح الليل كل يوم فوق فراش الزوجية أو ربما الكل يعلم والغالبية تمارس هذا الاغتصاب، بينما بقية القبيلة تبارك هذا القتل المشروع.

وجهه يدنو مني، يضحك الغول في أذني، ويتجلى في ملامحه... أغمض عيني وأستنجد بالعتم.

أصابعه تمتد نحوي؛ «رائحة المطر وجسدي المبلل.. اليد السوداء وأعقاب السجائر...».

يغلبني القيء؛ أهرب إلى الحمام.. أتقيء فاجعتي ودموعي. بينما هو يفرغ غضبه بكل ما تطاله يده.

هذه الليلة كنت قد استنفدت كل ما في قلبه من صبر.. أسبوع بأكمله وأنا أكرر ذات السيناريو كلما دنا الليل..

كاد أن يوجه قبضته إلى وجهي؛ لكنه غير وجهتها في اللحظة الأخيرة فضرب الحائط الذي التصقتُ به.

لمحت الدم النافر من أصابعه، والشرر الذي كاد يحرقني متطايراً من عينيه.

«غداً يوم آخر وأخير..».

كان هذا وعده ووعيده..

«غداً يوم آخر وأخير...».

وجاء الغد..

وفرشتُ له جسدي سجادةً حمراء، وفتحت مسامي للجحيم.

وسمعتُ في صمتي ألف صرخة مكتومة في العتم.. تشبهني؛ تشبهني تماماً.

وبللني دمع كل أنثى تُصلب فوق سرير الزوجية؛ تُلبَس إكليلاً
من شوك لكنها في نهاية المشهد
لا تُرفَع إلى السماء ولا تُسمى شهيدة...

* * *

دخلتُ ردهة المشفى على عجل بينما قلبي يغالب إحساساً غريباً يعتريه. عجلت بالخطا وأطلقتُ لساني بالسؤال حتى أجد ضالتي.

أخيراً دخلت الغرفة رقم (8) حيث أرشدتني الممرضة العابرة والتي بدا لي أنني أثقلتُ كاهلها بسؤالي.

– كان المشهد خالياً تماماً من أي دلائل فرح ولو عابر. بينما قلبي منشغل بمقاومة إحساسه الغريب.

دنوتُ من ريم؛ قبلتُها على وجنتيها بحميمية مفرطة. ثم اقتربت من أمها لأرمي قبلتين عابرتين على وجنتيها أيضاً.

– «مبارك.. مبارك.. الحمد لله على سلامتكما. الحمد لله على سلامتك ريم..».

قلتُ مستبشرةً والابتسامات تتناثر مني في كل مكان كمن يُصاب بفرط السعادة.

هزّت رأسها الصغير بأسىً يكبرها، وحاولت أن ترد فرط سعادتي بشيء من السعادة المفتعلة.

بينما تشاغلت أمها عنا بترتيب حاجيات ريم، ثم سحبت خطاها – دون أن تلفت النظر – خارج الغرفة لتتركنا وحدنا.

– «أين البنوتة.. أين ليث؟!».

– «(البنـت) أخذوهـا ليجروا لها فحوصات ما بعد الولادة.. وليث....».

ابتلـع صوتَهـا بـكاءٌ مفاجئ؛ بكاء عميـق كأنها كنزته منذ ألف عام.. لتهطلَه في موسمه...

– «شوفي؟! احكي.. خوفتيني..».

حاولـت أن أحرضهـا لتتم جملتها المبتورة، فأجابتني بصوتها الذي ظلّ مخنوقاً تحت وابل من دمع:

– «راح عالبيت.. ما شفتو بعد ما طلعت من غرفة المخاض... ما بدو البنت.....».

صُعقت؛ تقافز إلى أهدابـي دمعٌ متأهب.. رغم أنني كنت على علـم بـكل تصرفـات ليـث منـذ ما قبـل حمل ريم. بدايـةً من قوائم الطعـام المعـدّة لتهيئة الرحم لاسـتقبال مضغطـة الـ«ولد».. مرورا بخزعبلات العجائز التي لم يجد حرجاً في تصديقها وتطبيقها كُرمى للولـد.. وإصـراره علـى رفض صور الإيكو وتكذيب كل ما أخبرته إيـاه الطبيبـة عـن جنـس الجنيـن والتـي كانت تضطر كل شـهر إلى خـوض نقـاش مضـن محاولةً إقناعه بالصور.. كان يهرب من ذلك مردداً جملة جدتي الشهيرة، متمسكاً بها كقشة أخيرة من الأمل «بين طلقـة وطلقة بتتغيـر الخلقة»... انتهاءً بالجداول الصينية والهندية.. وما إلى ذلك من محاولات جادة تماما لاستجلاب «الولد»..

لم تكن محاولاته تلك غايتها استجلاب «الولد» بقدر ما كانت لاجتناب «البنت» تماماً.. تماماً.

رحـتُ أردد بصـوت خافـت؛ صـدر مني بغير وعـي؛ فبدوت

وكأنني أهذي بينما ريم تعزف دمعها على وتر صوتي..:

- «﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾.

بأي ذنب نُبذتْ؟!!

بأي ذنب ضُربتْ؟!!

بأي ذنب سُبيتْ؟!!

بأي ذنب خُتنتْ؟!!

بأي ذنب اغتُصبتْ؟!!

بأي ذنب.. بأي ذنب.. بأي ذنب؟!!».

هذه الحياة كم تبدو عرجاء وهي تقف على قدم الذكورة فقط!!

هذه الحياة كم ستبدو مقحلة وذابلة لو لم يمر عطر أنثى في أوصابها..

لكنه الخوف من العار الذي لا تنجبه إلا أنثى في مجتمع ذكوري حتى النخاع.. العار الذي لن يوجد إلا باجتماع ذكر وأنثى؛ يُغيّب الذكر تماماً عن نتائجه لتحمله الأنثى على ظهرها وتزحف تحت وزره على صراط القبيلة.. ثم يزجوا بها إلى جهنمهم.. «وبئس المصير»..

دخلت الممرضة تجر أمامها سريراً معدنياً مكللاً باللون الزهري. كان الشعور الغريب يتقد في جوفي؛ يتسلق صدري ليصل إلى حنجرتي كلسان من لهب.. في الوقت ذاته كانت تعتريني نشوة مفرطة..

مددت يدي لألتقط الطفلة «التي لا يريدها أبوها» أدنيتها من صدري ورحتُ أصلي على شفير ابتسامتها.. ها أنا يا مُنى أتعبّد من

جديد في ابتسامة صغيرة طازجة؛ مخلوقة للتو..

كانت رائحة الخَلق تغزوني.. كلما أدنيت الطفلة من وجهي.. أستنشقها؛ فتزداد نشوتي، ويتضخم ذاك الحريق في جوفي.

أخيراً عندما هزني صوت ريم طالبةً مساعدتي لتلقم الصغيرة ثديها. في تلك اللحظة.. حين درّ الحليب من ثدي ريم في فم طفلتها.. وجدتني وجهاً لوجه مع إحساسي المبهم وقد رفع الحجاب عن وجهه؛ لينهشني بفظاعة... أنا أغار.. أنا أغار.. أغار من أمومة ريم وأشتهيها..

أغار لأن رحمي لن يتضخم يوماً بمضغطة تكبر بين أوصابي..

وكأن رحمي لم يُخلق إلا ليكون مكباً للشهوات...

* * *

- أقترفـك بغيـر وعـي منـي.. رغم كل هذا البعـد الذي حفر سنيه أخاديد في وجهي..

رغم هذه المسافة التي تغرز أظافرها في مهجتي وتحتسي ما بقي في العروق من صبر.. وتَسكر..

أقترفك.. ولستُ أسمي هذا خيالاً؛ بل أسميه حياة..

ولست أعتبره خيانةً.. بل أمانة..

«إنتا الأساسي.. وبحبك بالأساس..».

وبهذه المناسبة هل لي أن أسألك «كيفك إنتا؟!!».

كيف أنت الآن..؟!

والساعة مئة ما بعد انهيار سور العشق العظيم..

هـل تنـام مطمئنا في فراشـك؛ حالماً بفراشـتك الجديدة التي قطفتها من فوق جفن القمر..

أم تراك تتقلب على جنبيك وقد ضربك الشـوق كعاصفة غير متوقعة..؟!

كيـف أنـت.. والأرض تحتـي تختلـج وفـي صدرهـا بـركان تكظمه..

أنا أرجوها أن تكظمه، وأعدها بالرحيل من هنا في أسرع وقت ممكن..

أصرخ في وجهها إني على قيد رحيل..!!

أعيد ترتيب أعماقي فحسب، ثم أمضي بعيداً جداً عن كل هذه الصدوع التي تكاد تلتهمني..

أعيد ترتيب أعماقي؛ بدءاً من الياسمينة المركونة في زاوية الفؤاد والتي أحرقتها الشمس أيام كنت أنت الشمس..!!

مروراً بأوراقي الملطخة بالقهوة والدمع، ورماد سجائرك التي حلمتَ بأن تدخنها لو كنت تملك أنفاساً.. فدخنتُها عوضاً عنك..

انتهاءً بزجاج نافذتي المتناثر والمغروز في صدري...

هذا الزجاج الذي تركته يتشظى وأنت تضرب باب قلبي خلفك بعنف..

وتغيب في الليل دون التفات.. وكأنك تثبت لي أنك لن تعود أبداً...

كيف أنت الآن؟!

هل تنام جيداً؟!!..

أما أنا فصدق أو لا تصدق...

أنا على قيد فناء..

هذه الليلة لم تكن عاديةً أبداً.. اليوم اكتمل نصاب الدم.

ووصلت النهايات العصبية في جلدي من الألم حد اللاألم. لا ألم أكثر مما كان؛ أنا الآن في ردهة اللاشيء. يحدث أن نفقد حواسنا كلها دفعةً واحدة لنقف ببلاهة نحملق إلى كل الفراغ الذي يحيقنا؛

ما أوسع العدم!!

ما كل هذا التلاشي؟!!

ما كل هذا الدم الذي يسيل فوق إهابي فلا يصل مصبه؟!!

أمد إصبعاً من دهشة؛ أغمسها بكل هذا الدم المنهمر من وجهي؛ من ذراعي..

وكفي التي لا تزال نازفة.. ألعق إصبعي؛ أتذوق دمي.. فتتأهب كل حواسي.. رغم كل المرارة المتكاثرة في حلقي؛ دمي لذيذ؛ لذيذ وحلو.. دمي شهي مثل نبيذ لم أذقه..

الآن عرفت لِمَ الكلّ يحتسيني.. «المعلم.. ليث.. وليد.. وحتى أنت..».

وحتى أنت جميعكم أثملكم دمي ورقصتم حول جثتي بمجون؛ تتعبدون أوثان الشرف، وتمجدون ألوهيتكم.. تسبحون بحمد فحولتكم..

– ضربني.. ضربني كثيراً. وحينما تعبت يداه استعان بحزامه..

لم أفعل شيئاً؛ لكنها الذاكرة..

الذاكرة التي تنهض من موتها كلما تحسستُ أنفاسه على جلدي. تنهض مثل عاهرة عارية.. تبدو لي بكامل رجسها وعوراتها..

لم تفلح محاولات إغماض جفني وابتلاع قيئي؛ كانت الحرب في رأسي في أوج اشتعالها. لم أملك زمام أمري.. ركلتُه وأنا في نوبة التذكر.. ركلتُه ليبتعد؛ لأتنفس..

ركلتُه فكأنما أخرجتُ المارد من قمقمه...

جرائم الشرف ماهي إلا صورة من صور الموت الرحيم..

ماذا لو بقيت الضحية على قيد الحياة هل ستكون تلك حياة

حقا..؟!!

كيف لها أن تتعايش مع كل هذه القسوة.. كيف يمكنها أن تتعامل مع الحياة وهي تحمل إعاقتها حيثما مضت.. سيشير الجميع إليها بأصابع تدعي الشرف فقط لأنها لم تُضبط متلبسةً باقتراف رذائلها..

جرائم الشرف.. ما هي إلا اختصار لعمر من المآسي؛ لطريق طويل من الذل والعذاب..

عقوبة سريعة وموجزة تمنح الضحية حريتها الكاملة لتخرج من أقفاص الاتهام في محاكم المجتمع.

ولأني ما وهبت ذلك الموت الرحيم ولأنهم حسبوا أنهم أحسنوا صنعاً إذ تركوا هذا الدم يدفق في عروقي ولم يسفكوه ويقطعوا إصبعهم التي عابت..

مضطرةٌ أنا أن أكون الضحية والجاني – كما كنت دائما – والسيّاف في هذه اللحظة..

* * *

هذا الشعور القاتل الذي يعتريني.. وحيدة جداً بهم.

لا أنتمي إلى هنا.. ولا أنتمي إلى هناك.

كأننا أنا وقلبـي ننتبذ من هذا الكون مكاناً قصيّاً. مكاناً لم أصله بعد وأوقن أني لن أبلغه إلا بشق الأنفس.

لا أنتمي إلى هنا.. لا أنتمي إلى هناك..

هذا الفراغ الذي يأكلني فيتسع. هذه الوحدة التي تتكاثر كلما ازداد الصخـب؛ هـذا الضجيج الـذي ينمو كلما خمدت الأصوات من حولي.

هـذا الوجـع الـذي ينخرني كلما تطلّعـتُ إلى وجوههم والآه التي تلفظني كلما تلاشى الحضور..

لا أعرفهم وكلما حاولت أن أعرفهم أكثر جهلتني..

وكلمـا اقتربت من مجاهل نفسـي تغرّبـتُ عنهم. الهاوية التي بينـي وبينهـم سـتبتلعني في نهايـة المطاف.. أنا أعلـم ذلك جيداً.. فهذه الحياة لم تُخلق لي؛ بل خُلقتْ لهم.

هـذا الحنيـن الموجـع إلى نفسـي.. إلى وطنـي الحقيقي. إلى كينونتـي التـي أدركـت تمامـاً أنهـا لن تكـون إلا إذا مـا أنهيت هذا العبث. هذه المسرحية التراجيدية السخيفة.

فليبكِ الجمهور قليلاً بعد مشهد النهاية؛ فليشتموني؛ فليرشقني

الجميع بلعناتهم وليرجموا جثتي المعلقة هنا إذا ما شاؤوا..

سأتركها لهم؛ تتأرجح خاوية بعد أن ملأها الفراغ عن آخرها. تتأرجح مثقلة بكل هذا التعب الذي حمّلوها إياه. منهكة ومرهقة؛ لكنها سعيدة أخيراً.. سعيدة جداً رغم ندبة الحزن الجلية في وجهها. سعيدة لأنني وصلت أخيراً الوطن.

أنا أعتذر يا الله لأني كنتُ ضعيفة دائماً..

لأني ما استطعت رد قضائك ولأني ما عرفت أن أشكرك في ضرائي مثل عبد غارق في تقاه.

أنا آسفة لقلة حيلتي وقلة حظي.. وقلة صبري..

بذلتُ جهداً أنت وحدكَ تعرفه – كما تعرف كل شيء – جيداً.

لأظل واقفةً في طابور المنتظرين. لأظل ثابتة بساقين من حديد لا ينخرهما التعب؛ لكنهما صدأتا.

بذلت جهداً لا يقل عن ذلك لأتقبل مصيبتي بقلب راض؛ لكنهم يا الله أثقلوه.

أنت تعرف – كما تعرف كل شيء – جيداً؛ كل ذلك المطر الليلي الذي أهطلتُه فوق وسادتي فما أنبت لي ولا وردةً واحدة في هذه الصحراء التي تصرّ على التهام ملامح الكون من حولي. ولا وردة واحدة تعينني على الانتظار أكثر.

أنت تعلم – كما تعلم كل شيء – أن الفرص كانت مواتية أكثر من مرة لإنهاء هذا الألم. لكنك ولحكمة أجهلها، وأعترف بجهلي ها هنا؛ كنت دائماً تمدد لي الإقامة. وكنتُ أعود لأقف في طابور المنتظرين بظهر مثقل بالمصائب وعمود فقري تقوّس لطول انتظاراته.

أنـا أعتـذر يـا الله؛ لأنـي لـم أعد أملـك من الصبر مـا يؤهلني للانتمـاء إلـى الأيوبييـن. لم يكن بوسـعي أن أكـون أيوبية أكثر مما كنته أو ما أنا عليه الآن..

أنت ترى كل هذا الظلم؛ أنت تمد الظالمين ليوم قريب.. وأنا كنت قد وعدتك أن أنتظر ذلك اليوم بكل ما بـي من يقين.

لـم ينفـد يقينـي؛ وأنـت تعرف – كما تعرف كل شـيء – لكن طاقتـي علـى الوقـوف كنخلة يضربها كل مـارق بحجارته ألف مرة ولا رطب في كنفي لأشغلهم بها عني.؛ طاقتي هي التي نفدت.

– أنا آسفة يا الله؛ لأنني رغم يقيني ما زلتُ ضعيفة... ضعيفة وضئيلـة. لأنـي رغـم يقينـي.. إلا أني امرأة نافـدة الصبر.. ورغم يقيني؛ إلا أنني أنثى متشظية..

أنـا أعتـذر يـا الله.. عن اسـتمرارية الموت التـي كنتُها بينما أنا أقـف فـي الطابـور. وأعـدك أن أكفّ عنها ما إن أعرف المخرج من هذا العالم البائس..

– وأنت تعلم – كما تعلم كل شيء – جيداً؛ أني أحبك.

بضعفي وضآلتي.. وتبعثري وتعثري..

أحبكَ جداً رغم بؤسي ويأسي.. وقلة حيلتي.. فهبني صفحك عمّا هو آت...

فوق السطح..

تسللتُ مثل سارقة حتى وصلتُ إلى هنا.

تحسستُ طريقي نحو أعلى مثل أعمى يتحسس أطراف الموت ليعانقه بطمأنينة. يمد أصابعه كأنما أعين احتياطية بديلة قد نبتت له هناك.

عزرائيل لم يمرني؛ فقررت أن استحضره على نية النهاية..

مددتُ يدي الراجفة إلى درج خشبي علوي متهالك ضمن مجموعة أدراج مهترئة؛ يحتفظ وليد بكومة من الخردة فيها يسندها إلى أعلى الدرج..

استجمعت حواسي كلها بأصابعي التي راحت تفتش عن بيل كهربائي يعينني على إتمام مهمتي في هذا الليل الذي اعتزله القمر منسحباً من مشهد النهاية بكل حيادية ولامبالاة.. وجدتُه أخيراً؛ ضممته في كفي وأكملتُ صعودي بالعتم. مؤجلةً الضوء إلى ما فوق السطح حتى لا يفضحني النور قبل أن أتم غايتي..

راقبت السماء الغارقة في عتمها؛ الشاحبة في سوادها والتي بدت لي متغضنة رغم صفائها..

هكذا نحن نرى الأشياء بعين أرواحنا، فنراها كما نبدو نحن لا كما هي في حقيقتها.. وأنا الآن امرأة شوهاء لا تنفك تمسخ

الجمال بكل ما فيها من انكسارات وشروخ..

فوق السطح...

أشغّل البيل ليهبني رؤيتي؛ أكتب بما تبقى من دمعي ودمي رسالة لن تصلك ولن تقرأها.. أحشرها في صندوق الموت معي، أو ربما أتركها للريح تحملها إليك أو لأي غريب لا يعنيه أمري..

يتسرب عبر النسيم صوت مسجل آت من شرفة مجاورة لعاشق ما؛ يسامر الأرق. وعبد الحليم يرمي سؤاله في وجه الليل.. «إن حكينا يا حبيبي نبتدي منين الحكاية؟!....».

يسألني فلا أجيبه؛ فحكايتي بدايتها واحدة. واحدة فقط لن أجد مشقة أبداً في محاولة سردها؛ سأبدأ منك.. منك أنت.. لكني سأضيع كثيراً بحثاً عن النهاية؛ النهاية التي بدت منذ سنوات وشيكة جداً. لكنها تقافزت مثل سمكة بين أصابعي حتى انزلقت لتتركني أُكمل ما أعدّت لي الحياة من موت.

الآن تبدو النهاية بعيدة وعصية لذا لن أنتظرها؛ بل سأمضي إليها..

فوق السطح..

أستعير من الهواء إحدى حبال الغسيل المعلّقة. الفجر يمد أصابعه الندية فوق صدر السماء، يداعب مسامها ويخنق الليل بكل تأن..

أعقد الحبل بإحكام حول أحد الأعمدة في زاوية السطح. أشدّه بقوة اليأس الذي يشدني، أثبّته بقوة الموت الذي يتسلل تحت

جلدي مطمئناً.

فوق السطح..

سأرتفع قليلاً؛ تتلعثم أصابعي قبل أن تدندن أغنيتها الأخيرة. أصابعي التي غنّتْ كثيراً في أذن كفك؛ بُحّ صوتها وذبلتْ القصائد في مسامها.

ستنضم أصابعي العشرة في لقاء أخير؛ أحني رأسي ينسل من الدائرة. يمسّد الحبل بشعيراته الناتئة رأسي بحنو، ثم يحيقني بكامل استدارته؛ بكامل انغلاقه. يحيط عنقي.. عنقي المرتجف.

يتعبني خوفي، تبدأ قدماي بالتعرق حتى أكاد أنزلق من فوق الكرسي الذي يحملني بكل ثقلي. بكل ما بي من مآس وفواجع وقهر. أتعبتُ كاهله، لذا لا بدّ لي أن أنهي المسألة بجرأة وحزم.

لا بد أن أنهي كل هذا العبث الذي أحصى سني عمري ثم بعثرها في الهباء؛ لأركض وراءها بكل حماقة محاولةً لملمتها..

بكف مرتعشة أشدّ عقدة الحبل حول عنقي. فأسمع حشرجتي مباغتة في كل هذا السكون الجنائزي.

تبدأ عيناي بالانفصال عن المشهد لثوان.. يصير الكون أكثر حلكةً.

والخوف يدنو بكل خبث ليقنعني بالعودة؛ أزحزح الحبل قليلاً عن عنقي.

لكن رائحة الدم – دمي – العابقة في المكان؛ وجهه الذي لم يتركني ليلة واحدة لغفوتي دون أن يحيلها كابوساً مستديماً..

قهقهتُه؛ ملمس جسده وهو يفترشني موطئاً لرغباته..

أصابعه تنزع عني غطاء روحي لتخدشها بكل ما في الكون من رجس. بكل ما في الكون من إفك وزيف ودنس..

فوق السطح...

ها أنا أرى الوجع أكبر من كل أسباب الحياة..

ها هو صدر الموت يبدو رحباً.. رحباً، بينما تضيق بي ذرعاً هذه الحياة. رحباً بحجم كل الكذب الذي لقنونا إياه في المدارس لنخرج إلى العالم بعقول ساذجة.. بحجم كل الكذب الذي نعيشه؛ كل الكذب الذي يعتاش على غبائنا أحياناً وتغابينا أحياناً أخرى.

ها هو صدر الموت يبدو رحباً بحجم الفراغ الماكث في كل القيم التي ما زلنا نحفظها في متاحف المثالية لنضحك ملء أشداقنا منها وعليها إذا ما وطئنا أرض الواقع..

بحجم الكذب الذي نرعاه كطفل ليكبر ونقدسه كأب فلا أفٍّ ولا ننهر. ونداريه مثل عاهرة نخطب ودها ذات رغبة بينما تخبئ عارها تحت وشاح بال ومبلل بماء رجل عابر..

تعود أصابعي لتفرغ حقدها على تلك العقدة.. ها هو الحبل مشدود إلى عنقي بعنف موجع.

حشرجتي تؤلم قلبي؛ أن أعرف كم هو موجع أن أسمع احتضاري. ولا أملك لنفسي إلا أن أركل الكرسي؛ سأركله بعد إغماضة واحدة.. طويلة.. لأتدلى مربوطة إلى حبل أتشبث به كسبيل أخير للهرب.. بينما هو يحكم قبضته على أنفاسي الأخيرة.

أركل الهـواء بقدميـن متهالكتين.. سيسـتمر المشـهد دقيقة أو أقل.. وربما أكثر..

لكنني سأهدأ.. سأهدأ تماماً بعد كل ذلك الصخب..

سأهدأ وكأنني شيءٌ لم يكن..

أنا لم أمت أيها الحمقى؛ أنا فقط أعود إليّ..

لا موتى إلا أنتم.. لا مقابر إلا صدوركم..

لا أكفان إلا تابوهاتكم..

أنا لم أمت فإيّاكم أن تندبوني..

أنا للتو أصافح الحياة.. وأضحك

بينما ينهشكم الدود..